

الطيب صالح

موسم
الهجرة
إلى
الشمال

الطبعة الثالثة عشر

APPROVED

صمم الغلاف الفنان : موسى طيعة

الطَّيِّبُ صَالِحٌ

«مَوْسَمُ الْهَجْرَةِ إِلَى الشَّمَالِ»

دَارُ الْعُودَةِ - بَيْرُوتَ

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الثالثة عشر

١٩٨١

الطبعة الرابعة عشر

١٩٨٧

دار العودة - بيروت

كورنيش المزرعة - بناية الريفيرا سنتر

هاتف ٣١٨١٦٥ - ٨١٥٣٣٥

ص. ب. : ١٤٦٢٨٤ بيروت

تلكس MEREBI 23682 LE

عدت الى أهلي يا سادتي بعد غيبة طويلة ، سبعة اعوام على وجه التحديد ، كنت خلالها أتعلم في أوروبا . تعلمت الكثير ، وغاب عني الكثير ، لكن تلك قصة أخرى . المهم انني عدت وبي شوق عظيم الى أهلي في تلك القرية الصغيرة عند منحني النيل . سبعة أعوام وأنا أحسن اليهم وأحلم بهم ، ولما جئتهم كانت لحظة عجيبة ان وجدتني حقيقة قائما بينهم ، فرحوا بي وضجوا حولي ، ولم يمض وقت طويل حتى احسست كأن ثلجاً يذوب في دخيلتي ، فكأنني مقرر طلعت عليه الشمس . ذاك دفء الحياة في العشيرة ، فقدته زماناً في بلاد « تموت من البرد حيتانها » . تعودت أذناي أصواتهم ، وألفت عينايا أشكالهم من كثرة ما فكرت فيهم في الغيبة ، قام بيني وبينهم شيء مثل الضباب ، اول وهلة رأيتهم . لكن الضباب راح ، وأستيقظت ثاني يوم وصولي ، في فراشي الذي أعرفه في الغرفة التي تشهد جدرانها على ترهات حياتي في طفولتها ومطلع شبابها وأرخيت أذني للريح . ذاك لعمرى صوت أعرفه ، له في

بلدنا وشوشة مرحلة . صوت الريح وهي تمر بالنخل غيره وهي
تمر بحقول القمح . وسمعت هديل القمرى ، ونظرت خلال
النافذة الى النخلة القائمة في فناء دارنا ، فعلمت ان الحياة لا
تزال بخير ، أنظر الى جذعها القوي المعتدل ، والى عروقها
الضاربة في الارض ، والى الجريد الاخضر المنهدل فوق هامتها
فأحس بالطمأنينة . أحس انني لست ريشة في مهب الريح ،
ولكني مثل تلك النخلة ، مخلوق له أصل ، له جذور له هدف .
وجاءت أمي تحمل الشاي . وفرغ أبي من صلاته وأوراده
فجاء . وجاءت أختي ، وجاء اخوأي ، وجلسنا نشرب الشاي
ونتحدث ، شأنا منذ تفتحت عيناى على الحياة . نعم ،
الحياة طيبة ، والدنيا كحالتها لم تتغير .

فجأة تذكرت وجهها رأيته بين المستقبلين لم أعرفه . سألتهم
عنه ، ووصفته لهم . رجل ربعة القامة ، في نحو الخمسين أو
يزيد قليلا ، شعر رأسه كثيف مبيض ، ليست له لحية وشاربه
أصفر قليلا من شوارب الرجال في البلد . رجل وسيم .

وقال أبي : « هذا مصطفى »

مصطفى من ؟ هل هو أحد المغتربين من أبناء البلد عاد ؟

وقال أبي ان مصطفى ليس من أهل البلد ، لكنه غريب
جاء منذ خمسة أعوام ، أشتري مزرعة وبنى بيتا وتزوج بنت
محمود .. رجل في حاله ، لا يعلمون عنه الكثير .

لا أعلم تماما ماذا أثار فضولي ، لكنني تذكرت أنه يوم

وصولي كان صامتا . كل أحد سألني وسألته . سألوني عن أوربا . هل الناس مثلنا أم يختلفون عنا؟ هل المعيشة غالية أم رخيصة؟ ماذا يفعل الناس في الشتاء؟ يقولون ان النساء سافرات يرقصن علانية مع الرجال . وسألني ودريس: هل صحيح انهم لا يتزوجون ولكن الرجل منهم يعيش مع المرأة بالحرام؟

أسئلة كثيرة رددت عليها حسب علمي . دهشوا حين قلت لهم ان الاوربيين ، اذا استثنينا فوارق ضئيلة ، مثلنا تماما ، يتزوجون ويربون اولادهم حسب التقاليد والاصول ، ولهم اخلاق حسنة ، وهم عموما قوم طيبون .

وسألني محجوب . « هل بينهم مزارعون ؟ »

وقلت له : « نعم بينهم مزارعون وبينهم كل شيء . منهم العامل والطبيب والمزارع والمعلم ، مثلنا تماما » . وآثرت ألا أقول بقية ما خطر على بالي : « مثلنا تماما . يولدون ويموتون وفي الرحلة من المهد إلى اللحد يحملون أحلاما بعضها يصدق وبعضها يخيب . يخافون من المجهول ، وينشدون الحب ، ويبحثون عن الطمأنينة في الزوج والولد . فيهم أقوياء ، وبينهم مستضعفون ، بعضهم أعطته الحياة أكثر مما يستحق ، وبعضهم حرمته الحياة . لكن الفروق تضيق وأغلب الضعفاء لم يعودوا ضعفاء » . لم أدل لمحجوب هذا ، وليتني قلت ، فقد كان ذكيا . خفت ، من غروري ، ألا يفهم .

وقالت بنت مجذوب ضاحكة : « خفنا أن تعود إلينا
بنصرانية غلفاء » .

لكن مصطفى لم يقل شيئاً . ظل يستمع في صمت ،
يبتسم أحياناً ، ابتسامة أذكر الآن أنها كانت غامضة ،
مثل شخص يتحدث نفسه .

نسيت مصطفى بعد ذلك ، فقد بدأت أعيد صلتى بالناس
والأشياء في القرية . كنت سعيداً تلك الأيام ، كطفل يرى
وجهه في المرآة لأول مرة . وكانت أمي لي بالمرصاد ، تذكرني
بمن مات ، لأذهب وأعزي ، وتذكرني بمن تزوج ، لأذهب
وأهني . جبت البلد طويلاً وعرضاً معزياً ومهنثاً . ويوماً
ذهبت إلى مكاني الأثير ، عند جذع شجرة طلع على ضفة
النهر . كم عدد الساعات التي قضيتها في طفولتي تحت تلك
الشجرة ، أرمي الحجارة في النهر وأحلم ، ويشرد خيالي في
الأفق البعيد ؟ أسمع أنين السواقي على النهر ، وتصايح الناس
في الحقول ، وخوار ثور أو نهيق حمار . كان الحظ يسعدني
أحياناً ، فتمر الباخرة أمامي صاعدة أو نازلة . من مكاني
تحت الشجرة ، رأيت البلد يتغير في ببطء . راحت السواقي .
وقامت على ضفة النيل طلمبات لضخ الماء ، كل مكنة تؤدي
عمل مائة ساقية . ورأيت الضفة تنقهقر عاماً بعد عام أمام
لطمات الماء ، وفي جانب آخر يتقهقر الماء أمامها . وكانت
تخطر في ذهني أحياناً أفكار غريبة . كنت أفكر ، وأنا أرى

الشاطئ، يضيق في مكان ، ويتسع في مكان ، أن ذلك شأن الحياة ، تعطي بيد وتأخذ باليد الأخرى . لكن لعلني أدركت ذلك فيما بعد . أنا الآن ، على أي حال ، أدرك هذه الحكمة ، لكن بذهني فقط ، إذ أن عضلاتي تحت جلدي مرنة مطواعة وقلبي متفائل . انني أريد أن آخذ حقي من الحياة عنوة ، أريد أن أعطي بسخاء ، أريد أن يفيض الحب من قلبي فينبع ويثمر . ثمة آفاق كثيرة لا بد أن 'تزار' ، ثمة ثمار يجب أن 'تقطف' ، كتب كثيرة تقرأ ، وصحفات بيضاء في سجل العمر ، سأكتب فيها جملاً واضحة بخط جريء . وأنظر إلى النهر بدأ ماؤه يربد بالطمي - لا بد أن المطر هطل في هضاب الحبشة - وإلى الرجال قاماتهم متكئة على المحاربت ، أو منحنية على المعاول . وتمتليء عيناى بالحقول المنبسطة كراحة اليد إلى طرف الصحراء حيث تقوم البيوت . أسمع طائراً يغرد ، أو كلباً ينبج ، أو صوت فأس في الحطب - وأحس بالاستقرار . أحس انني مهم ، وانني مستمر ، ومتكامل . « لا .. لست أنا الحجر يلقى في الماء ، لكنني البذرة تبذر في الحقل » . وأذهب إلى جدي ، فيحدثني عن الحياة قبل أربعين عاماً ، قبل خمسين عاماً ، لا بل ثمانين ، فيقوى إحساسي بالأمن . كنت أحب جدي ، ويبدو أنه كان يؤثرني . ولعل أحد أسباب صدافتي معه ، انني كنت منذ صغري تشجذ خيالي حكايات الماضي ، وكان جدي يحب أن يحكي ، ولما سافرت خفت أن يموت في غيبتى . وكنت حين

يلم بي الحنين إلى أهلي ، أراه في منامي . قلت له ذلك ، فضحك وقال : « حدثني عراف وأنا شاب ، انني إذا جاوزت عمر النبوة - يعني الستين - فاني سأصل المائة » . وحسبنا عمره ، أنا وهو فوجدنا انه بقي له نحو اثني عشر عاما .

كان جدي يحدثني عن حاكم غاشم ، حكم ذلك الاقليم أيام الأتراك . ولست أعلم ما الذي دفع بمصطفى إلى ذهني ، لكنني تذكرته بغتة ، فقلت أسأل عنه جدي ، فهو عليم بحسب كل أحد في البلد ونسبه ، بل باحساب وأنساب مبعثرة قبلي وبحري ، أعلى النهر وأسفله . لكن جدي هز رأسه وقال انه لا يعلم عنه سوى انه من نواحي الخرطوم ، وانه جاء الى البلد منذ نحو خمسة أعوام ، واشترى أرضاً تفرق وارثوها ، ولم تبق منهم إلا امرأة . فأغراها الرجل بالمال واشتراها منها . ثم قبل أربعة أعوام زوجه محمود إحدى بناته . قلت لجدي : « أي بناته ؟ » فقال : « أظنها حسنة » . وهز جدي رأسه وقال : « تلك القبيلة . لا يزالون لمن يزوجون بناتهم » . لكنه أردف ، كأنه يعتذر ، ان مصطفى طول إقامته في البلد ، لم يبدو منه شيء منفر ، وانه يحضر صلاة الجمعة في المسجد بانتظام ، وانه يسارع « بذراعه وقدمه في الأفراح والأتراح » .. هكذا طريقة جدي في الكلام .

* * *

بعد هذا بيومين ، كنت وحدي أقرأ وقت القيلولة .

كانت أمي وأختي تلهفان مع بعض النسوة في أقصى البيت ،
وكان أبي نائماً ، وقد خرج أخوأي لشأن ما ، فخلوت بنفسي .
سمعت نحنة خارج البيت ، فقممت ، فإذا هو مصطفى ،
يحمل بطيخة كبيرة ، وزنبيلاً مملوءاً برتقالاً . ولعله رأى
الدهشة على وجهي ، فقال : « أرجو ألا أكون أيقظتك من
نوم . لكنني قلت أجيئك بعينة من ثمر الحقل ، تذوقه .
كذلك أحب أن أتعرف إليك . وقت الظهيرة ليس وقت
زيارة . اعذرني » .

لم يغب عني أدبه الجم ، فأهل بلدنا لا يبالون بعبارات
المجاملة . يدخلون في الموضوع دفعة واحدة ، يزورونك ظهراً
كان أو عصرأ ، لا يهمهم أن يقدموا المعاذير . رددت الود
بالود ، ثم جيء بالشاي .

دقت النظر في وجهه ، وهو مطرق . انه رجل وسم
دون شك ، جبهته عريضة رحبة ، وحاجباه متباعدان ،
يقومان أهلة فوق عينيه ، ورأسه بشعره الغزيز الأسيب
متناسق تماماً مع رقبته وكتفيه ، وانفه حاد منحراه مليئان
بالشعر . ولما رفع وجهه أثناء الحديث ، نظرت إلى فمه
وعينه ، فأحسست بالمزيج الغريب من القوة والضعف في وجه
الرجل . كان فمه رخوأ ، وكانت عيناه ناعستين ، تجعلان وجهه
أقرب إلى الجمال منه إلى الوسامة . ويتحدث بهدوء ، لكن
صوته واضح قاطع . حين يسكن وجهه يقوى . وحين يضعحك

يغلب الضعف على القوة . ونظرت إلى ذراعيه ، فكانتا قويتين ، عروقهما نافرة ، لكن أصابعه كانت طويلة رشيقة ، حين يصل النظر إليها بعد تأمل الذراع واليد ، تحس بغتة كأنك انحدرت من الجبل إلى الوادي .

قلت أدعه يتحدث ، فهو لم يجيء إليّ في حمأة القيظ ، إلا ليقول لي شيئاً . ولعله من فاحية أخرى جاء بوازع من حسن النية . لكنه قطع عليّ حدسي . فقال : « لملك الوحيد من أهل البلد ، الذي لم أسعد بالتعرف عليه من قبل » . لما إذا لا يترك هذا الأدب ، ونحن في بلد إذا غضب فيها الرجال ، قال بعضهم لبعض : يا ابن الكلب .

« سمعت كثيراً عنك من أهلك وأصدقائك » - لا غرو ، فقد كنت أعد نفسي زينة الشباب في البلد .

« قالوا انك نلت شهادة كبيرة - ماذا تسمونها ؟ الدكتوراه ؟ » يقول لي ماذا تسمونها؟ لم يعجبني ذلك ، فقد كنت أحسب أن الملايين العشرة في القطر كلهم سمعوا بانتصاري . « يقولون انك لامع منذ صغرك » .

« العفو » - هكذا قلت ، لكنني ، والحق يقال ، كنت تلك الايام مزهواً بنفسي ، حسن الظن بها . « دكتوراه . هذا شيء كبير » .

فقلت له ، وأنا أتصنع التواضع ، ان الامر لا يعدو أنني قضيت ثلاثة أعوام ، أنقب في حياة شاعر مغمور من شعراء

الانكليز . واغتظت ، لا اخفي عليكم انني اغتظت ، حين ضحك الرجل ملء وجهه ، وقال :

« نحن هنا لا حاجة لنا بالشعر . لو انك درست علم الزراعة أو الهندسة أو الطب ، لكان خيراً » . انظر كيف يقول « نحن » ولا يشملني بها ، مع العلم بأن البلد بلدي ، وهو - لا أنا - الغريب .

لكنه ابتسم في وجهي برقة ، ولاحظت كيف طفى الضعف في وجهه على القوة ، وكيف أن عينيه في الواقع جميلتان كعيني انثى ، وقال :

« لكن نحن مزارعون نفكر فيما يعيننا ، انما العلم ، مهما كان ، ضروري لرفعة الوطن » .

صمت برهة ، فازدحمت اسئلة كثيرة في رأسي : من أين هو ؟ ولماذا استقر في هذا البلد ؟ وما هي قصته ؟ لكنني آثرت التريث ، واسعفني هو فقال :

« الحياة في هذا البلد هينة خيرة . الناس طيبون عشرتهم سهلة » .

فقلت له : « انهم يذكرونك بالخير . جدي يقول انك رجل فاضل » .

ضحك حينئذ ، ربما لانه تذكر مقابلة له مع جدي ، وبدأ كأنه سر من قولي ، وقال :

« جدك .. ذاك رجل . ذاك رجل .. تسمون عاماً وقامته منتصبه ، ونظره حاد ، وكل سن في فمه . يقفز فوق الحمار

خفيفاً ، ويمشي من بيته للمسجد في الفجر . هاه ذاك رجل .
كان مخلصاً وهو يقول هذا . ولم لا ؟ وجدي ، في واقع
الامر ، اعجوبة .

وخفت ان يفلت الرجل قبل أن أعلم عنه شيئاً - الى هذا
الحد بلغ فضولي - فجرى السؤال عني لساني قبل أن افكر :
« هل صحيح انك من الخرطوم ؟ » .

وفوجئ الرجل قليلاً وخيل لي ان ما بين عينيه قد
تعمر ، لكنه بسرعة ومهارة عاد إلى هدوئه ، قال لي وهو
يتعمد أن يبتسم : « من ضواحي الخرطوم في الواقع . قل الخرطوم » .
وصمت برهة قصيرة ، وكأنه يناقش بيده وبين نفسه ، هل
يصمت أم يعطيني المزيد ثم رأيت الطيف الساحر يحوم حول
عينيه ، تماماً كما رأيته أول يوم ، وقال وهو ينظر اليّ رجباً
قبالة وجهه :

« كنت في الخرطوم أعمل في التجارة . ثم لأسباب عديدة ،
قررت ان اتحول للزراعة . كنت طول حياتي أشتاق للاستقرار
في هذا الجزء من القطر ، لا أعلم السبب . وركبت الباكسة ،
وأنا لا أعلم وجهتي . ولما رست في هذا البلد ، أعجبتني هيئتها .
ومجس هاجس في قلبي : هذا هو المكان . وهكذا كان ، كما
تري . لم يخب ظني في البلد ولا أهله » . ثم صمت ، وقام قائلاً
انه ذاهب للحقل ، ودعاني للمساء في بيته بعد يومين .

ولما أوصلته للباب ، قال لي وهو يودعني ، والطيف
الساحر اكثر وضوحاً حول عينيه :

« جدك يعرف السر » .

ولم يمهليني حتى أسأله : « أي سر يعرفه جدي ؟ جدي

ليست له أسرار . ولكنه مضى مبتعداً بخطوات نشيطة متحفزة ، رأسه يميل قليلاً الى اليسار .

* * *

ذهبت للعشاء فوجدت محجوباً ، والعمدة ، وسميد التاجر ، وأبي . تعشينا دون ان يقول مصطفى شيئاً يشير الاهتمام . كان كعادته يسمع أكثر مما يتكلم . كنت ، حين يخفت الحديث وحين أجد أنه لا يعنيني كثيراً ، أتلفت حولي كأنني أحاول ان أجد في غرف البيت وجدرا نه الجواب على الاسئلة التي تدور في رأسي . لكنه كان بيتاً عادياً ، ليس أحسن ولا أسوأ من بيوت اليسورين في البلد . منقسم الى جزئين كبقية البيوت ، جزء للنساء ، والقسم الذي فيه « الديوان » للرجال ورأيت الى يمين الديوان غرفة من الطوب الاحمر ، مستطيلة الشكل ، ذات نوافذ خضراء . سقفها لم يكن مسطحاً كالعادة ولكنه كان مثلثاً كظهر الثور .

قمنا أنا ومحجوب وتركنا الباقيين . وفي الطريق سألت محجوباً عن مصطفى . لم يخبرني بجديد لكنه قال : « مصطفى رجل عميق » .

قضيت في البلد شهرين ، كنت خلالها سميداً . وقد جمعتني الصدفة بمصطفى عدة مرات . مرة دعيت لحضر اجتماع لجنة المشروع الزراعي . دعاني محجوب ، رئيس اللجنة وقد كان صديقي ، نشأنا معاً منذ طفولتنا . دخلت عليهم

وكان مصطفى بينهم ، وكانوا يبحثون أمراً يتعلق بتوزيع الماء على الحقول . ويبدو أن بعض الناس ، ومنهم من هو عضو في اللجنة ، كانوا يفتحون الماء في حقولهم قبل الموعد المحدد لهم . وأحتد القماش وتصايحوا بعضهم على بعض وفجأة رأيت مصطفى يهب واقفاً . هداً اللفظ واستمعوا اليه باحترام زائد . وقال مصطفى ان الخضوع للنظام في المشروع أمر مهم والا أختلطت الامور وسادت الفوضى ، وان على اعضاء اللجنة خاصة أن يكونوا قدوة حسنة لغيرهم ، فاذا خالفوا القانون عوقبوا كبقية الناس . ولما فرغ من كلامه هز أغلب اعضاء اللجنة رؤوسهم استحساناً ، وصمت من عناهم الكلام . لم يكن ثمة أدنى شك في ان الرجل من عجينة أخرى ، وأنه أحقهم برئاسة اللجنة ، لكن ربما لأنه ليس من أهل البلد لم ينتخبوه .

* * *

بعد هذا بنحو أسبوع ، حدث شيء أذهلني . دعاني محجوب لمجلس شراب . وبينما نحن نسمر جاء مصطفى يكلم محجوباً في شأن من شؤون المشروع . دعاه محجوب ان يجلس فاعتذر ، ولكن محجوباً حلف عليه بالطلاق . مرة أخرى لاحظت سحابة التبرم تنعقد ما بين عينيهِ ، ولكنه جلس ، وعاد بسرعة الى هدوئه الطبيعي . وثارله محجوب كأساً من الشراب ، فتردد برهة ثم أمسك بها ووضعها الى جانبه

دون ان يشرب منها . ومرة أخرى أقسم بحجوب ، فشرب مصطفى . كنت أعرف بحجوبا متهوراً ، فخطر لي أن أمنعه عن مضايقة الرجل ، اذ من الواضح أنه غير راغب في الجلسة أصلاً . لكن خاطراً آخر هجس في ذهني ، فتوقفت . شرب مصطفى الكأس الاولى باشمئزاز واضح ، شربه بسرعة ، كأنه ادواء مقيت . لكنه لما وصل الى الكأس الثالثة ، أخذ يبطن ويص الشراب مصاً ، بلذة . حينئذ ارتخت عضلات وجهه ، وغاب التوتر في أركان فمه ، وأصبحت عيناه حالمتين ناعستين ، أكثر من ذي قبل . القوة التي تحسها في رأسه وجبهته وأنفه ، ضاعت تماماً في الضعف الذي سال ، مع الشراب ، على عينيه وفمه . وشرب مصطفى كأساً رابعة ، وكأساً خامسة . لم يعد في حاجة إلى تشجيع ، لكن بحجوباً كان يحلف بالطلاق على أي حال . دفن مصطفى قامته في المقعد ، ومدد رجله . وأمسك الكأس بكلتا يديه ، وصرحت عيناه ، كما خيل لي ، في آفاق بعيدة ، ثم ، فجأة ، سمعته يتلو شعراً إنكليزياً ، بصوت واضح ونطق سليم . قرأ قصيدة وجدت فيها بعد بين قصائد عن الحرب العالمية الأولى :

« هؤلاء نساء فلاندرز

ينتظرن الضائعين ،

ينتظرن الضائعين الذين أبداً لن يفادروا الميناء ،

ينتظرن الضائعين الذين أبداً لن يحيي بهم القطار ،

إلى أحضان هؤلاء النسوة ، ذوات الوجوه الميتة ،
ينتظرن الضائعين ، الذين يرقدون موتى في الخندق
والحاجز والطين في ظلام الليل .
هذه محطة تشارنغ كروس . الساعة جاوزت الواحدة .
ثمة ضوء ضئيل
ثمة ألم عظيم .

بعد ذلك نأوه ، وهو لا يزال ممسكاً بالكأس بين يديه ،
وعيناه سارحتان ، في آفاق داخل نفسه .

أقول لكم ، لو أن عفريتاً انشقت عنه الأرض فجأة ،
ووقف أمامي ، عيناه تقدحان اللهب ، لما ذعرت أكثر مما
ذعرت . وخامرني ، بغتة ، شعور فظيع ، شيء مثل
الكابوس ، كأننا نحن الرجال المجتمعين في تلك الغرفة ، لم
نكن حقيقة ، إنما وهماء من الأوهام . وقفزت ، ووقفت فوق
الرجل ، وصحت فيه : « ما هذا الذي تقول ؟ ما هذا الذي
تقول ؟ » نظر إلي نظرة جامدة ، لا أدري كيف أصفها ،
لكن لعلها كانت خليطاً من الاحتقار والضيق . ودفعني بعنف
بيده ، ثم هب واقفاً ، وخرج من الغرفة في خطوات ثابتة ،
مرفوع الرأس ، كأنه شيء ميكانيكي . كان محجوب مشغولاً ،
يضحك مع بقية من في المجلس ، فلم ينتبه لما حدث .

ذهبت إليه ثاني يوم في حقله ، فوجدته مكباً يحفر الأرض
حول شجرة ليمون . كان مرتدياً سروالاً من الكاكي قصيراً

متسخاً ، وقميصاً من الدبلان يصل إلى ركبتيه ، وعلى وجهه
بقع من الطين . حياني بأدبه الجم كعادته وقال لي : « بعض
فروع هذه الشجرة تثمر ليمونا ، وبعضها يثمر برتقالاً » .
فقلت له بالانجليزي ، عمداً : « شيء مذهش » . فنظر إلي
مستغرباً وقال : « ماذا ؟ » فأعدت الجملة . ضحك وقال لي :
« هل أنستك إقامتك الطويلة في إنجلترا العربي ، أم تحسب
اننا خواجات ؟ » قلت له : « لكنك ليلة أمس قرأت الشعر
باللغة الانجليزية » .

غاضني صمته . فقلت له : « من الواضح انك شخص آخر
غير ما تزعم . من الخير أن تقول لي الحقيقة » . لم يبد عليه
أي تأثر بالتهديد الذي ضمنته كلامي ، ومضى يحفر حول
الشجرة . ولما فرغ من حفره ، قال وهو ينفذ الطين عن
يديه دون أن ينظر إلي :

« لا أدري ماذا قلت وماذا فعلت في الليلة الماضية .
السكران لا يؤخذ على كلامه . إذا كنت قلت شيئاً ، فهو
كخترفة النائم ، أو هذيان المحموم . لست له قيمة . أنا هو
هذا الشخص الذي أمامك ، كما يعرفه كل أحد في البلد . لست
خلاف ذلك ، وليس عندي شيء أخفيه » .

ذهبت إلى البيت ، ورأسي يضحج بالأفكار . أنا واثق ان
وراء « مصطفى » قصة ، أو شيئاً لا يود أن يبوح به . هل
خاتني أذناي ليلة البارحة ؟ الشعر الانجليزي الذي قرأه ،

كان حقيقة . لم أكن سكران ، ولم أكن نائماً ، وصورته وهو جالس في ذلك المقعد ، ممدأرجليه ، ممسكاً بالكأس بكلتا يديه ، صورة واضحة لا مرأى فيها . هل أحدث أبي ؟ هل أقول لمحجوب ؟ لعل الرجل قتل أحداً في مكان ما وفر من السجن ؟ لعله .. لكن أية أسرار في هذا البلد ؟ لعله فقد ذاكرته ؟ يقال أن بعض الناس يصابون « بالامنيزيا » أثر حادث . وأخيراً قررت أن أمهله يومين أو ثلاثة ، فإذا لم يأتني بالحقيقة ، كان لي معه شأن آخر .

لم يطل انتظاري ، فقد جاءني مصطفى عشية ذلك اليوم . وجد أبي وأخوي أيضاً ، فقال أنه يريد أن يحدثني على انفراد . قمت معه ، فقال لي : « هل تحضر إلى بيتي مساء غد ؟ أريد أن أتحدث إليك » . ولما عدت سألتني أبي : « ماذا يريد مصطفى ؟ » فقلت له أنه يريدني أن أفسر له عقداً بملكية أرض له في الخرطوم .

رحت إليه عند المغيب ، فوجدته وحده ، أمامه آنية شاي . عرض علي الشاي فأبيت ، فقد كنت في الحقيقة أتعجل سماع القصة . لا بد أنه قرر أن يقول الحقيقة . أعطاني سيجارة فقبلتها .

تفرست في وجهه وهو ينفث الدخان ببطء ، فبدأ هادئاً قوياً . أبعدت الفكرة ، وأنا أنظر في وجهه ، أن يكون قاتلاً . استعمال العنف يترك أثراً في الوجه لا تخطئه العين .

أما أنه فقد ذاكرته ، فهذا محتمل . وأخيراً بدأ مصطفى يتحدث ، ورأيت الطيف الساخر حول عينيه أوضح من أي وقت رأيته فيه . شيء محسوس ، كأنه لمع البرق .

« سأقول لك كلاماً لم أقله لأحد من قبل . لم أجِد سبباً لذلك قبل الآن . قررت هذا حتى لا يجمع خيالك ، وأنت درست الشعر ، ضحكك حتى يخفف حدة الاحتقار التي بدت في صوته وهو يقول هذا .

« خفت أن تذهب وتحدث إلى الآخرين . تقول لهم أنني لست الرجل الذي أزعِم . فيحدث . . يحدث بعض الحرج ، لي ولهم . لذا فإن لي عندك رجاء واحداً . أن تعدني بشرفك ، أن تقسم لي بأنك لن تبوح لخلق بشيء مما سأحدثك به الليلة . ونظر إلي نظرة مركزة . فقلت له :

« هذا يعتمد على ما ستقوله لي . كيف أعذك وأنا لا أعلم عنك شيئاً ؟ » .

فقال : « انني أقسم لك بأن شيئاً مما سأقوله لك لن يؤثر على وجودي في هذا البلد . انني رجل في كامل عقلي ، مسالم ، لا أحب لهذا البلد وأهله إلا الخير » .

لا أكتفك أنني ترددت . لكن اللحظة كانت مشحونة بالاحتمالات ، وكان فضولي عارماً ليس له حد . خلاصة القول أنني وعدت وأقسمت ، فدفع مصطفى إلي برزمة أوراق وأوماً لي أن أنظر فيها فتحت ورقة فاذا هي وثيقة ميلاده .

مصطفى سعيد ، من مواليد الخرطوم ، ١٦ أغسطس عام ١٨٩٨ ... الأب متوفي ، الأم فاطمة عبد الصادق ، فتحت بعد ذلك جواز سفره ، الاسم ، المولد ، البلد ، كما في شهادة الميلاد . المهنة « طالب » . تاريخ صدور الجواز عام ١٩١٦ في القاهرة وجدد في لندن عام ١٩٢٦ . كان ثمة جواز سفر آخر ، انكليزي ، صدر في لندن عام ١٩٢٩ . قلبت صفحاته فاذا أختام كثيرة ، فرنسية وألمانية وصينية ودنماركية . كل هذا شحذ خيالي بشكل لا يوصف ، فلم أستطع المضي في تقليب صفحات جواز السفر ، وانصرف ذهني عن بقية الأوراق . ولا بد أن وجهي كان مشحوناً بالترقب حين نظرت إليه . مضى مصطفى ينفث في دخان سيجارته برهة ، ثم قال :

انها قصة طويلة . لكنني لن أقول لك كل شيء . وبعض التفاصيل لن تهملك كثيراً ، وبعضها ... المهم انني كما ترى ولدت في الخرطوم . نشأت يتيماً ، فقد مات ابي قبل أن أولد ببضعة أشهر ، لكنه ترك لنا ما يستر الحال . كان يعمل في تجارة الجمال . لم يكن لي أخوة ، فلم تكن الحياة عسيرة عليّ وعلى أمي . حين أرجع الآن بذاكرتي ، أراها بوضوح ، شفتاها الرقيقتان مطبقتان في حزم ، وعلى وجهها شيء مثل القناع . لا أدري . قناع كثيف ، كان وجهها صفحة بحر ، هل تفهم ؟ ليس له لون واحد بل ألوان متعددة ، تظهر وتغيب وتتمازج . لم يكن لنا أهل . كنا ، أنا وهي ، أهلاً بعضنا لبعض . كانت كأنها شخص غريب جمعتني به الظروف صدفة في الطريق . لعاني كنت مخلوقاً غريباً ، أو لعل أمي كانت غريبة . لا أدري . لم نكن نتحدث كثيراً ، وكنت ، ولعلك تعجب ، أحس احساساً دافئاً بأنني حر ، بأنه ليس ثمة مخلوق أب أو أم ، يربطني كالوقد الى بقعة معينة ومحيط معين . كنت

أقرأ وإثام ، أخرج وأدخل ، العب خارج البيت ، أتسكع في الشوارع ، ليس ثمة أحد يأمرني أو ينهاني . الا أنني منذ صغري ، كنت أحس بأنني ... انني مختلف . أقصد انني لست كبقية الاطفال في سني ، لا أتاثر بشيء لا أبكي اذا ضربت ، لا أفرح اذا أثنى عليّ المدرس في الفصل ، لا أتاالم لما يتاالم له الباكون . كنت مثل شيء مكور من المطاط ، تلقيه في الماء فلا يبتل ، ترميه على الارض فيقفز . كان ذلك الوقت أول عهدنا بالمدارس أذكر الآن الناس كانوا غير راغبين فيها . كانت الحكومة تبعث أعوانها يجوبون البلاد والاحياء ، فيخفي الناس ابناءهم . كانوا يظنونها شراً عظيماً جاءهم مع جيوش الاحتلال . كنت العب مع الصبية خارج دارنا ، فجاء رجل على فرس ، في زي رسمي ، ووقف فوقنا . جرى الصبية ، وبقيت انظر الى الفرس والى الرجل فوقه . سألني عن اسمي فأخبرته . قال لي كم عمرك ، فقلت له لا ادري . قال لي : « هل تحب ان تتعلم في المدرسة ؟ » قلت له : « ما هي المدرسة ؟ » فقال لي : « بناء جميل من الحجر وسط حديقة كبيرة على شاطئ النبل . يندق الجرس وتدخل الفصل مع التلاميذ . تتعلم القراءة والكتابة والحساب » . قلت للرجل : « هل البس عمامة كهذه ؟ » وأشارت الى شيء كالقبة فوق رأسه . فضحك الرجل وقال لي : « هذه ليست عمامة . هذه برنيطة . قبة » . وترجل من على فرسه ووضعها فوق رأسي فغاب وجهي كله فيها . ثم قال الرجل : « حين تكبر ، وتخرج

من المدرسة ، وتصير موظفاً في الحكومة ، تلبس قبعة كهذه ،
قلت للرجل : « اذهب للمدرسة » . أردفني الرجل خلفه
فوق الحصان ، وحملني الى مكان ، كما وصفه ، من الحجر ،
على ضفة النيل ، تحيط به أشجار وأزهار . ودخلنا على رجل
ذي لحية ، يلبس جبة ، فقام وربت على رأسي ، وقال لي :
« لكن أين أبوك ؟ » فقلت له انت أبي ميت . فقال لي :
« من ولي امراك ؟ » قلت له : « أريد أن أدخل المدرسة » .
نظر اليّ الرجل بعطف ، ثم قيدوا اسمي في سجل ، وسألوني
كم عمري فقلت لهم لا أدري . وفجأة دق الجرس . فررت
منهم ، ودخلت إحدى الحجرات فجاء الرجلان وساقاني الى
حجرة أخرى واجلساني في مقعد بين صبية آخرين .
عدت الى أمي في الظهر فسألتنني أين كنت ، فحكيت
لها القصة . نظرت اليّ برهة نظرة غامضة ، كأنها
أرادت أن تضمني الى صدرها . فقد رأيت وجهها
يصفو برهة ، وعينيها تلعبان ، وشفتيها تفتران كأنها تريد أن
تبتسم ، أو تقول شيئاً . لكنها لم تقل شيئاً . وكانت تلك
نقطة تحول في حياتي . كان ذلك أول قرار اتخذته ،
بحض إرادتي .

إنني لا أطلب منك أن تصدق ما أقوله لك . لك أن
تعجب وأن تشك . أنت حر . هذه وقائع مضى عليها وقت
طويل ، وهي كما ترى الآن ، لا قيمة لها . أقولها لك لأنها
تحضرنني ، لأن الحوادث بعضها يذكر بالبعض الآخر .

المهم انني انصرفت بكل طاقاتي لتلك الحياة الجديدة .
وسرعان ما اكتشفت في عقلي مقدرة عجيبة على الحفظ
والاستيعاب والفهم . أقرأ الكتاب فيرسخ جملة في ذهني .
ما ألبث أن أركز عقلي في مشكلة الحساب حتى تتفتح لي
مغالقتها ، تذوب بين يدي كأنها قطعة ملح رضعتها في الماء .
تعلمت الكتابة في أسبوعين ، وانطلقت بعد ذلك لا أوي
على شيء . عقلي كأنه مدية حادة ، تقطع في برود وفعالية .
لم أبال بدهشة المعلمين وإعجاب رفقائي أو حسدهم . كان
المعلمون ينظرون إليّ كأنني معجزة ، وبدأ التلاميذ يطلبون
ودي . لكنني كنت مشغولاً بهذه الآلة العجيبة التي أتيحت لي .
وكنت بارداً كحقل جليد ، لا يوجد في العالم شيء يهزني .
طويت المرحلة الأولى في عامين ، وفي المدرسة الوسطى
اكتشفت ألقاً أخرى ، منها اللغة الانكليزية . فمضى عقلي
بعض ويقطع كأسنان محراث . الكلمات والجمال تتراءى لي
كأنها معادلات رياضية ، والجبر والهندسة كأنها أبيات شعر .
العالم الواسع أراه في دروس الجغرافيا ، كأنه رقعة شطرنج .
كانت المرحلة الوسطى أقصى غاية يصل إليها المرء في التعليم
تلك الأيام . وبعد ثلاثة أعوام ، قال لي ناظر المدرسة ، وكان
انكليزياً : « هذه البلد لا تتسع لذهنك ، فسافر . إذهب إلى
مصر أو لبنان أو انكلترا . ليس عندنا شيء نعطيك إياه
بعد الآن » . قلت له على الفور : « أريد أن أذهب إلى
القاهرة » . فسهّل لي ، فيما بعد ، السفر ، والدخول مجاناً

في مدرسة ثانوية في القاهرة ، ومنحة دراسية من الحكومة .
وهذه حقيقة في حياتي ، كيف قبضت الصدف لي قوماً
ساعدوني وأخذوا بيدي في كل مرحلة ، قوماً لم أكن أحس
تجاههم بأي إحساس بالجميل . كنت أقبل مساعداتهم ،
كأنها واجب يقومون به نحوي .

حين أخبرني ناظر المدرسة بأن كل شيء أعد لسفري
للقاهرة ، ذهبت إلى أمي وحدثتها . نظرت إلى مرة أخرى ،
تلك النظرة الغريبة . افترت شفها لحظة كأنها تريد أن
تبسم ، ثم أطبقتهما ، وعاد وجهها كعده ، قناعاً كثيفاً ،
بل مجموعة أقنعة . ثم غابت قليلاً ، وجاءت بصرة وضعتها
في يدي ، وقالت لي :

« لو أن أباك عاش ، لما اختار لك غير ما اخترته
لنفسك . افعل ما تشاء . سافر . أو ابق ، انت وشأنك .
إنها حياتك ، وأنت حر فيها . في هذه الصرة ما تستعين به .
كان ذلك وداعنا . لا دموع ولا قبل ولا وضوء . مخلوقان
سارا شطراً من الطريق معاً ، ثم سلك كل منها سبيله .
وكان ذلك في الواقع آخر ما قالته لي ، فلأنني لم أرها بعد
ذلك . بعد سنوات طويلة ، وتجارب عدة ، تذكرت تلك
اللحظة ، وبكيت . أما الآن ، فلأنني لم أشعر بشيء
على الإطلاق . جمعت متاعني في حقيبة صغيرة ، وركبت
القطار . لم يلوّح لي أحد بيده ولم تنهمر دموعي لفراق أحد .

وضرب القطار في الصحراء ، ففكرت قليلا في البلد الذي خلفته ورائي ، فكان مثل جبل ضربت خيمتي عنده ، وفي الصباح قلمت الأوتاد وأسرجت بعيري ، وواصلت رحلتي . وفكرت في القاهرة ونحن في وادي حلفا ، فتخيلها عقلي جبلا آخر ، أكبر حجما ، سأبيت عنده ليلة أو ليلتين ، ثم أواصل الرحلة إلى غاية أخرى .

أذكر أنني جلست في القطار قبالة رجل في مسوح وعلى رقبته صليب كبير أصفر . ابتسم الرجل في وجهي وتحدث معي باللغة الانكليزية ، فأجبته . أذكر تماما أن الدهشة بدت على وجهه واتسعت حدقتا عينيه أول ما سمع صوتي . دقق النظر في وجهي وقال لي : « كم سنك ؟ » فقلت له خمسة عشر . كنت في الواقع في الثانية عشرة ، لكنني خفت أن يستخف بي . فقال الرجل : « إلى أين تقصد ؟ » فقلت له : « إنني ذاهب للالتحاق بمدرسة ثانوية في القاهرة » . فقال : « وحدك ؟ » قلت نعم . نظر إلي مرة أخرى نظرة طويلة فاحصة ، فقلت له قبل أن يتكلم : « إنني أحب السفر وحدي . مم أخاف ؟ » حينئذ قال لي جملة لم أحفل بها كثيرا وقتذاك . وأضاءت وجهه ابتسامة كبيرة وأردف : « إنك تتحدث اللغة الانكليزية بطلاقة مذهلة » .

وصلت القاهرة ، فوجدت مستر روبنسن وزوجته في انتظاري ، فقد أخبرهما مستر ستكول بقدومي . صافحني

الرجل وقال لي : « كيف أنت يا مستر سعيد ؟ » فقلت له :
« أنا بخير يا مستر روبنسن » . ثم قدمني إلى زوجته . وفجأة
أحسست بذراعي المرأة تطوقانني ، وبشفتيها على خدي .
في تلك اللحظة ، وأنا واقف على رصيف المحطة ، وسط
دوامة من الأصوات والأحاسيس ، وزندا المرأة ملتفان حول
عنقي ، وفها على خدي ، ورائحة جسمها ، رائحة أوربية
غريبة ، تدغدغ أنفي ، وصدرها يلامس صدري ، شعرت
وأنا الصبي ابن الاثني عشر عاماً بشهوة جنسية مبهمه لم أعرفها
من قبل في حياتي ، وأحسست كأن القاهرة ، ذلك الجبل
الكبير الذي حملني اليه بعيري ، امرأة أوربية ، مثل مسز
روبنسن تماماً ، تطوقني ذراعها ، يملأ عطرها ورائحة
جسدها أنفي . كان لون عينيها كلون القاهرة في ذهني ،
رمادياً ، أخضر ، يتحول بالليل إلى وميض كوميض اليراعة .
كانت مسز روبنسن تقول لي : « أنت يا مستر سعيد
إنسان خال تماماً من المرح » . صحيح انني لم أكن أضحك .
وتضحك مسز روبنسن وتقول لي : « ألا تستطيع أن تنسى
عقلك أبداً ؟ » ويوم حكموا عليّ في الأولد بيلي بالسجن سبع
سنوات ، لم أجد صدرأ غير صدرها أسند رأسي اليه . ربت
على رأسي وقالت : « لا تبك يا طفلي العزيز » . لم يكن لهما
أطفال . كان مستر روبنسن يحسن اللغة العربية ، ويعني
بالفكر الإسلامي والعمارة الإسلامية ، فزرت معها جوامع
القاهرة ، ومتاحفها وآثارها . وكانت أحب مناطق القاهرة

أليها ، منطقة الأزهر . كنا حين تكلل أقدامنا من الطواف ،
نلوذ بتمهي بجوار جامع الأزهر ، ونشرب عصير التمر هندي ،
ويقرأ مستر روبنسن شعر المعري . كنت وقتها مشغولاً
بنفسي ، فلم أحفل بالحب الذي أسفاه علي . كانت مسز
روبنسن ممثلة الجسم ، برونزية اللون ، منسجمة مع القاهرة ،
كأنها صورة منتقاة بذوق ، لتناسب لون الجدران في غرفة .
و كنت أنظر إلى شعر ابطيها وأحس بالذعر .. لعلها كانت
تعلم أنني أشتهيها ، لكنها كانت عذبة ، أعذب امرأة عرفتها .
تضحك بمرح ، وتحنو علي كما تحنو أم علي إبنها .

وكانا على الرصيف حين أقلعت بي الباخرة من الاسكندرية .
ورأيتها من بعيد وهي تلوح لي بمنديلها ، ثم تجفف به الدمع
من عينيها ، وإلى جوارها زوجها ، واضعاً يديه على خصره ،
وأكد أرى ، حتى من ذلك البعد ، صفاء عينيهِ
الزرقاوين . إلا أنني لم أكن حزيناً ، كان كل هي أن أصل
لندن ، جبلاً آخر أكبر من القاهرة ، لا أدري كم ليلة أمكث
عنده . كنت في الخامسة عشرة ، يظنني من يراني في العشرين ،
متماسكاً على نفسي ، كأنني قرينة منفوخة . ورائي قصة نجاح
فد في المدرسة ، كل سلاح هذه المدينة الحادة في جمجمتي ،
وفي صدري إحساس بارد جامد ، كأن جوف صدري مصبوب
بالصخر ولما ابتلعت اللجة الساحل ، وهاج الموج تحت
السفينة ، وإستدار الأفق الأزرق حوالينا ، أحسست قواً

بألفة غامرة للبحر. انني أعرف هذا العلاق الأخضر اللامنتهي،
 كأنه يمور بين ضلوعي. واستمرت طيلة الرحلة ذلك الاحساس
 في أني في لا مكان ، وحدي ، أمامي وخلفي الأبد أو لا شيء
 وصفحة البحر حين يهدأ سراب آخر ، دائم التبدل والتحول ،
 مثل القناع الذي على وجه أمي . هنا أيضاً صحراء مخضرة
 مزرقمة ممتدة ، تناديني ، تناديني . وقادني النداء الغريب إلى
 ساحل دوفر ، وإلى لندن ، وإلى المأساة . لقد سلكت ذلك
 الطريق بعد ذلك عائداً . وكنت أسائل نفسي طوال الرحلة ،
 هل كان من الممكن تلافي شيء مما وقع ؟ وتر القوس مشدود ،
 ولا بد أن ينطلق السهم . وأنظر إلى اليسار واليمين ، إلى
 الخضرة الداكنة ، والقرى السكسونية القائمة على حوافي التلال .
 سقوف البيوت حمراء ، محدودة كظهور البقر ، وثمة غلالة
 شفافة من الضباب ، منشورة فوق الوديان . ما أكثر الماء هنا
 وما أرحب الخضرة . وكل تلك الألوان . ورائحة المكاث
 غريبة ، كرائحة جسد مسز روبنسن . والأصوات لها وقع
 نظيف في أذني ، مثل حفيف أجنحة الطير . هذا عالم منظم ،
 بيوت ، وحقول وأشجاره مرسومة وفقاً لحطة . الغدران كذلك ،
 لا تتعرج ، بل تسيل بين شطآن صناعية . ويقف القطار في
 المحطة ، بضع دقائق . يخرج الناس مسرعين ، ويدخلون
 مسرعين ، ثم يتحرك القطار . لا ضوضاء . وفكرت في حياتي
 في القاهرة . لم يحدث شيء ليس في الحسبان . زادت معلوماتي .
 وحدثت لي أحداث صغيرة ، وأحبتي زميلة لي ثم كرهتني

وقالت لي : « أنت لست انساناً . أنت آلة صماء » . تسكعت في شوارع القاهرة ، وزرت الأوبرا ، ودخلت المسرح ، وقطعت النيل ساجماً ذات مرة . لم يحدث شيء إطلاقاً ، سوى أن القربة زادت انتفاخاً ، وتوتر وتر القوس . سينطلق السهم نحو آفاق أخرى مجهولة . وانظر إلى دخان القطار ، يتلاشى ، حيث تهب به الريح ، في غلالة الضباب المنتشرة في الوديان . وأخذتني سنة من النوم . وحملت أنني أصلي وحدي في جامع القلعة . كان المسجد مضاءً بآلاف الشمعدانات ، والرخام الأحمر يتوهج ، وأنا وحدي أصلي . واستيقظت وفي أنفي رائحة البخور ، فاذا القطار يقترب من لندن . القاهرة مدينة ضاحكة ، وكذلك مسز روبنسن . كانت تريدني أن أناديها باسمها الأول ، اليزابيث ، لكنني كنت أناديها باسم زوجها . تعلمت منها حب موسيقى باخ ، وشعر كيتس ، وسمعت عن مارك توين لأول مرة منها . لكنني لم أكن أستمع بشيء . وتضحك مسز روبنسن وتقول لي : « ألا تستطيع أن تنسى عقلك أبداً ؟ » هل كان من الممكن تلافي شيء مما حدث ؟ كنت عائداً حينذاك وتذكرت ما قاله لي القسيس ، وأنا في طريقي إلى القاهرة : « كلنا يا بني نسافر وحدنا في نهاية الأمر » . كانت يده تتحسس الصليب على صدره . وأضاءت وجهه ابتسامة كبيرة وأردف : « انك تتحدث اللغة الانكليزية بطلاقة مذهلة » . اللغة التي أسمعها الآن ليست كاللغة التي تعلمتها في المدرسة . هذه أصوات حية ، لها جرس آخر .

كان عقلي كأنه مدية حادة . لكن اللغة ليست لغتي . تعلمت فصاحتها بالممارسة ، وحملني القطار إلى محطة فكتوريا ، وإلى عالم جين مورس .

كل شيء حدث قبل لقائي إياها ، كان ارهاصاً . وكل شيء فعلته بعد أن قتلتها كان اعتذاراً ، لا لقتلها ، بل لا كذوبة حياتي . كنت في الخامسة والعشرين حين لقيتها ، وفي حفل في تشلسي . الباب ، وممر طويل يؤدي إلى القاعة . فتحت الباب ، وتريثت ، وبدت لعيني تحت ضوء المصباح الباهت كأنها سراب لمع في صحراء . كنت نخبوراً ، كأسى بقي ثلثها ، وحولي فتاتان ، أتفحش معها ، وتضحكان . وجاءت تسمى نحونا بخطوات واسعة ، تضع ثقل جسمها على قدمها اليمنى ، فيميل كفها إلى اليسار . وكانت تنظر إلي وهي قادمة . وقفت قبالي ونظرت إلي بصلف وبرود . وشيء آخر . وفتحت فمي لا تكلم ، لكنها ذهبت . وفلت اصباحتي « من هذه الانثى ؟ » .

كانت لندن خارجة من الحرب ومن وطأة العهد الفكتوري . عرفت حانات تشلسي ، وأندية هامبستد ، وممتديات بلومزبري . أقرأ الشعر ، واتحدث في الدين والفلسفة ، وانقد الرسم ، وأقول كلاماً عن روحانيات الشرق . أفعل كل شيء حتى أدخل المرأة في فراشي . ثم أسير إلى صيد آخر . لم يكن في نفسي قطرة من المرح ، كما قالت مسز روبنسن . جلبت

النساء الى فراشي من بين فتيات جيش الخلاص ، وجمعيات الكويكرز ، ومجتمعات الفايانين . حين يجتمع حزب الاحرار او العمال او المحافظين أو الشيوعيين ، أسرج بعيري واذهب . وفي المرة الثانية ، قالت لي جين مورس : « أنت بشع . لم أر في حياتي وجهاً بشعاً كوجهك » . وفتحت فمي لأنكلم لكنها ذهبت . وحلفت في تلك اللحظة ، وأنا سكران انني سأقتاضها الثمن في يوم من الايام . وصحوت وآن همد الى جواربي في الفراش . أي شيء جذب آن همد اليّ ؟ ابوها ضابط في سلاح المهندسين ، وامها من العوائل الثرية في لفربول كانت صيداً سهلاً ، لقيتها وهي دون العشرين ، تدرس اللغات الشرقية في اكسفورد . كانت حية ، وجهها ذكي مرح وعيناها تبرقان بحب الاستطلاع . رأيتي فرأت شفقاً داكناً كفجر كاذب . كانت عكسي تعجن الى مناخات استوائية ، وشموس قاسية ، وآفاق أرجوانية . كنت في عينها رمزاً لكل هذا الحنين . وأنا جنوب يحن الى الشمال والصقيع . آن همد قضت طفولتها في مدرسة راهبات . عمها زوجة نائب في البرلمان . حولتها في فراشي الى عاهرة . غرفة نومي مقبرة قتل على حديقة ، ستائرهما وردية منتقاة بعناية ، وسجاد سندسي دافئ والسريـر رحب مخداته من ريش النعام . وأضواء كهربائية صغيرة ، حمراء ، وزرقاء ، وبنفسجية ، موضوعة في زوايا معينة . وعلى الجدران مرايا كبيرة ، حتى اذا ضاجت امرأة ، بدا كأنني اضاجع حريماً كاملاً في آن واحد . تعبق

في الغرفة رائحة الصندل المحروق والند ، وفي الحمام عطور شرقية نفاذة ، وعقاقير كيماوية ، ودهون ، ومساحيق ، وحبوب . غرفة نومي كانت مثل غرفة عمليات في مستشفى . ثمة بركة ساكنة في اعماق كل امرأة . كنت أعرف كيف أحركها . وذات يوم وجدوها ميتة انتحاراً بالغاز ووجدوا ورقة صغيرة باسمي . ليس فيها سوى هذه العبارة : مستر سعيد . لعنة الله عليك . كان عقلي كأنه مدية حادة . وحملني القطار الى محطة فكتوريا . والى عالم جين مورس

في قاعة المحكمة الكبرى في لندن ، جلست أسابيع أستمع إلى المحامين يتحدثون عني ، كأنهم يتحدثون عن شخص لا يهمني أمره . كان المدعي العمومي سير آرثر هفنز عقل مريع ، أعرفه تمام المعرفة ، علمني القانون في أكسفورد ، ورأيت من قبل ، في هذه المحكمة نفسها وفي هذه القاعة ، يعتمر المتهمين في قفص الاتهام اعتصاراً . نادراً ما كان يفلت منهم من يده . ورأيت متهمين ييكون ويغمى عليهم ، بعد أن يفرغ من استجوابهم . لكنه هذه المرة كان يصارع جثة .

« هل تسببت في انتحار آن همند ؟ »

« لا أدري »

« وشيلا غرينود ؟ »

« لا أدري »

« وإيزابيلا سيمور ؟ »

« لا أدري »

« هل قتلت جين مورس ؟ »

« نعم »

« قتلتها عمدا ؟ »

« نعم »

كان صوته كأنما يصلني من عالم آخر . ومضى الرجل يرسم بحذق صورة مربعة لرجل ذئب ، تسبب في انتحار فتاتين ، وحطم امرأة متزوجة ، وقتل زوجته ، رجل أناني ، انصبت حياته كلها على طلب اللذة . ومرة خطر لي في غيبوبيتي ، وأنا جالس هناك أستمع إلى أستاذي ، برفسور ماكسول فستر كين ، يحاول أن يخلصني من المشقة ، أن أقف وأصرخ في المحكمة : « هذا المصطفى سعيد لا وجود له . انه وهم ، أكذوبة . واني أطلب منكم أن تحكموا بقتل الأكذوبة » . لكنني كنت هامداً مثل كومة رماد . ومضى برفسور ماكسول فستر كين يرسم صورة لعقل عبقرى دفعته الظروف إلى القتل ، في لحظة غيرة وجنون . روى لهم كيف انني عيئت محاضراً للاقتصاد في جامعة لندن ، وأنا في الرابعة والعشرين . قال لهم أن « آن همد » و « شيلا غرينود » كانتا فتاتين تبحثان عن الموت بكل سبيل ، وانهما كانتا مستنحران سواء قابلتا مصطفى سعيد أو لم تقابلاه . « مصطفى سعيد يا حضرات الحلفين إنسان نبيل ، استوعب عقله حضارة الغرب ، لكنها حطمت قلبه . هاتان الفتاتان لم يقتلها مصطفى سعيد ولكن قتلها جرثوم مرض

عضال أصابها منذ ألف عام . وخطر لي أن أقف وأقول لهم : « هذا زور وتلفيق . قتلها أنا . أنا صحراء الظمأ . أنا لست عطيلاً . أنا أكذوبة . لماذا لا تحكمون بشنقي فتقتلون الأكذوبة ! » لكن برفسور فستر كين حوّل المحاكمة إلى صراع بين عالمين ، كنت أنا إحدى ضحاياه . وحملني القطار إلى محطة فكتوريا ، وإلى عالم جين مورس .

لبثت أطاردها ثلاثة أعوام . كل يوم يزداد وتر القوس توتراً ، قربي مملوءة هواء ، وقوافلي ظمأى ، والسراب يلمع أمامي في متاهة الشوق ، وقد تحدد مرمى السهم ، ولا مفر من وقوع المأساة . وذات يوم قالت لي : « أنت ثور همجي لا يكل من الطراد . إنني تعبت من مطاردتك لي ، ومن جريبي أمامك . تزوجني » . وتزوجتها . غرفة نومي صارت ساحة حرب . فراشي كان قطعة من الجحيم . أمسكها فكأنني أمسك سحابة ، كأنني أضاجع شهاباً ، كأنني أمتطي صهوة نشيد عسكري بروسى . وتفنأ تلك الابتسامة المريبة على فمها . أقضي الليل ساهراً ، أخوض المعركة بالقوس والسيف والرمح والنشاب ، وفي الصباح أرى الابتسامة ما فتئت على حالها ، فاعلم انني خسرت الحرب مرة أخرى . كأنني شهربار رقيق ، تشتريه في السوق بدينار ، صادف شهرزاد متسولة في أنقاض مدينة قتلها الطاعون . كنت أعيش مع نظريات كينز وتوني بالنهار ، وبالليل أواصل الحرب بالقوس والسيف والرمح والنشاب . رأيت الجنود يعودون ، يملؤهم

الذعر ، من حرب الحنادق والقمل والوباء . رأيتهم يزرعون بذور الحرب القادمة في معاهدة فرساي ، ورأيت لويد جورج يضع أسس دولة الرفاهية العامة . وانقلبت المدينة إلى امرأة عجيبة ، لها رموز ونداءات غامضة ، ضربت اليها أكباد الابل ، وكاد يقتلني في طلبها الشوق ، غرفة نومي ينبوع حزن ، جرثوم مرض فتاك . العدوى أصابتهم منذ ألف عام ، لكنني هيجت كوامن الداء حتى استفحل وقتل . وكان المغنون يرددون أهازيج الحب الحقيقي والمرح في مسارح لستر سكوير ، فلم يخفق لها قلبي . من كان يظن أن شيلا غرينود تقدم على الانتحار ؟ خادمة في مطعم في سوهو . بسيطة حلوة المبسم ، حلوة الحديث . أهلها قرويون من ضواحي هل . أغريتها بالهدايا والكلام المعسول ، والنظرة التي ترى الشيء فلا تخطئه . جذبها عالمي الجديد عليها . دوختها رائحة الصندل المحروق والند ، ووقفت وقتاً تضحك لحياها في المرأة ، وتعبث بعقد العاج الذي وضعته كأنشطة حول جيدها الجميل . دخلت غرفة نومي بتولاً بكراً ، وخرجت منها تحمل جرثوم المرض في دمها . ماتت دون أن تنفس ببنت شفة . ذخيري من الأمثال لا تنفذ . ألبس لكل حالة لبوسها ، شئ يعرف متى يلاقي طبقه . « أليس صحيحاً أنك في الفترة ما بين أكتوبر ١٩٢٢ وفبراير ١٩٢٣ ، في هذه الفترة وحدها على سبيل المثال ، كنت تعيش مع خمس نساء في آن واحد ؟ » .

« بلى » .

« وانك كنت توهم كلا منهن بالزواج ؟ »

« بلى » .

« وانك انتحلت إسمًا مختلفاً مع كل منهن ؟ »

« بلى » .

« انك كنت حسن ، وتشارلز ، وأمين ، ومصطفى ،

ورتشارد ؟ »

« بلى » .

« ومع ذلك كنت تكتب وتحاضر عن الاقتصاد المبني
على الحب لا على الأرقام ؟ أليس صحيحاً انك أقمت شهرتك
بدعوتك الانسانية في الاقتصاد ؟ »

« بلى » .

ثلاثون عاماً . كان شجر الصفصاف بيض ويخضر ويصفر
في الحداثق ، وطير الوقوق يغني للربيع كل عام . ثلاثون
عاماً وقاعة البرت تغص كل ليلة بعشاق بيتهوفن وباخ ،
والمطابع تخرج آلاف الكتب في الفن والفكر . مسرحيات
برنارد شو تمثل في الرويال كورت والهيباركت . كانت ايديث
ستول تغرد بالشعر ، ومسرح البرنس اف ويلز يفيض بالشباب
والالقي . البحر في مده وجزره في بورتسمث وبرايطن ، ومنطقة
البحيرات تزدهي عاماً بعد عام . الجزيرة مثل لحن عذب ،
سعيد حزين ، في تحول سرايبي مع تحول الفصول . ثلاثون عاماً

وأنا جزء من كل هذا ، أعيش فيه ، ولا أحس جماله الحقيقي ،
ولا يعنيني منه إلا ما يملأ فراشي كل ليلة .

نعم . في الصيف . قالوا ان صيفاً مثله لم يأتهم منذ مائة
عام . وخرجت من داري يوم سبت اششم الهواء ، وأحس
بانني مقبل على صيد عظيم . وصلت ركن الخطباء في حديقة
هايد بارك . كان غاصاً بالخلق . وقفت عن بعد أستمع إلى
خطيب من جزر الهند الغربية يتحدث عن مشكلة الملونين .
استقرت عيني فجأة على امرأة تشرئب بعنقها لرؤية الخطيب ،
فيرتفع ثوبها إلى ما فوق الركبتين ، مظهرأ ساقين ملتفتين من
البرونز . نعم هذه فريسي . وسرت اليها ، كالقارب يسير
إلى الشلال . ووقفت وراءها ، والتصقت حتى أحسست
بحرارتها تسري إلي . وشممت رائحة جسدها ، تلك الرائحة
التي استقبلتني بها مسز روبنسون على رصيف محطة القاهرة .
واقتربت منها حتى أحسست بي ، فالتفتت إلي فجأة ، فابتسمت
في وجهها ابتسامة لم أكن أعلم مصيرها ، لكنني عزمت على
ألا تضيع هباء . وضحكت أيضاً ، حتى لا تنقلب الدهشة
في وجهها إلى عداة فابتسمت . ووقفت إلى جانبها نحواً من
ربع الساعة ، أضحك حين يضحكها قول الخطيب ، وأضحك
بصوت مرتفع لكي تسري فيها عدوى الضحك ، حتى
جاءت لحظة ، أحسست فيها انني وهي صرنا كفرس ومهرة ،
يركضان في تناسق ، جنباً إلى جنب . وهنا خرج الصوت
من حلقي ، كأنه ليس صوتي : « ما رأيك في شراب ،

بعيداً عن هذا الزحام والحر ؟ ، أدارت رأسها بدهشة ، فابتسمت هذه المرة ابتسامة عريضة بريئة ، حتى أحول الدهشة إلى حب استطلاع على الأقل . وفي أثناء ذلك تفرست في وجهها ، فوجدت كل سمة من سماته يزيدني اقتناعاً بأن هذه فريستي . كنت أعلم ، بطبيعة المقامر ، ان تلك اللحظة حاسمة . كل شيء في هذه اللحظة محتمل . وتحولت ابتسامتي إلى سرور كاد يفلت زمامه من يدي حين قالت : « نعم . ولم لا ؟ » وسرنا معاً ، أحس بها إلى جانبي وهجاً من البرونز تحت شمس يوليو ، أحس بها مدينة من الأسرار والنعيم . وسرني انها تضحك بسهولة . هذه السيدة ، نوعها كثير في أوروبا ، نساء لا يعرفن الخوف ، يقبلن على الحياة بمرح وحب استطلاع . وأنا صحراء الظمأ ، متاهة الرغائب الجنونية . وسألتنني ونحن نشرب الشاي عن بلدي . رويت لها حكايات ملفقة عن صحاري ذهبية الرمال ، وأدغال تتصايح فيها حيوانات لا وجود لها . قلت لها ان شوارع عاصمة بلادي تعج بالأفيال والأسود ، وتزحف عليها التماسيح عند القيلولة . وكانت تستمع إلى بين مصدقة ومكذبة . تضحك ، وتغمض عينيها ، وتحمر وجنتاها . وأحياناً تصغي إلي في صمت ، وفي عينيها عطف مسيحي . وجاءت لحظة أحسست فيها انني انقلبت في نظرها مخلوقاً بدائياً غريباً ، يمسك بيده رحماً ، وبالأخرى نشاباً ، يصيد الفيلة والأسود في الأدغال . هذا حسن . لقد تحول حب الاستطلاع إلى مرح ، وتحول

المرح إلى عطف ، وحين أحرك البركة الساكنة في الأعماق ،
سيستحيل العطف إلى رغبة أعزف على أوتارها المشدودة كما
يحلو لي . وسألتني : « ما جنسك ؟ هل أنت أفريقي أم
آسيوي ؟ »

قلت لها : « أنا مثل عطيل . عربي أفريقي » .
نظرت إلى وجهي وقالت : « نعم . أنفك مثل أنوف
العرب في الصور . لكن شعرك ليس فاحماً ناعماً مثل شعر
العرب » .

« نعم . هذا أنا . وجهي عربي كصحراء الربع الخالي ،
ورأسي أفريقي يمور بطفولة شريرة » .

ضحكت وقالت : « أنت تصور الأشياء بشكل غريب » .
وقادنا الحديث إلى أهلي ، فقلت لها ، غير كاذب هذه
المرة ، انني يليم وليس لي أهل . ثم عدت إلى الكذب ،
فوصفت لها وصفاً مهولاً كيف فقدت والدي ، حتى رأيت
الدمع يطفر إلى عينيها . قلت لها انني كنت في السادسة من
عمرى ، حين غرق والداي مع ثلاثين آخرين في مركب كان
يعبر بهم النيل من شاطئ إلى شاطئ . وهنا حدث شيء كان
أفضل من الرثاء . الرثاء في مثل هذه الأمور عاطفة غير
مضمونة العواقب . لمعت عيناها ، وصاحت في نشوة :

« نايل ؟ »

« نعم النيل » .

أنتم إذن تسكنون على ضفاف النيل ؟ »

« أجل ، بيتنا على ضفة النيل تماماً بحيث انني كنت ،
إذا استيقظت على فراشي ليلاً ، أخرج يدي من النافذة
وأداعب ماء النيل حتى يغلبني النوم » .

الطائر يا مستر مصطفى قد وقع في الشرك . النيل ،
ذلك الإله الأفعى ، قد فاز بضحية جديدة . المدينة قد
تحولت إلى امرأة . وما هو إلا يوم أو أسبوع ، حتى أضرب
خيمتي ، وأغرس وتدي في قمة الجبل . أنت يا سيدي قد
لا تعلمين ، ولكنك ، مثل « كارنارفون » حين دخل قبر
توت عنخ آمون ، قد أصابك داء فتاك لا تدرين من أين أتى ،
سيودي بك إن عاجلاً وإن آجلاً . ذخيرتي من الأمثال لا
تفد . شئ يعرف متى يلاقي طبقه . وأحسست بزمام الحديث
في يدي ، كفنان مهره مطواع ، أشده فتقف ، اهزه فتمشي ،
أحركه فتتحرك وفقاً لإرادتي ، إن يميناً وإن شمالاً .
وقلت لها :

« مضت ساعتان دون أن أحس بهما . لم أحس بمثل هذه
السعادة منذ زمن بعيد . وبقي كثيراً أقوله لك وتقولينه لي .
ما رأيك في ان نتمشى معاً ، ونواصل الحديث ؟ »

صمتت برهة ، فلم أقلق ، لأنني احسست بذلك الدفء
الشيطاني ، تحت الحجاب الحاجز حين احسه أعلم انني مسيطر
على زمام الموقف . لا ، انها لن تقول لا . وقالت : « هذا
لقاء عجيب . رجل غريب لا اعرفه يدعوني . هذا لا يجوز ،

لكن .. » وصمتت ثم قالت : « نعم . لم لا ؟ هبثك لا تدل على انك من آكلة لحوم البشر » .

قلت لها ، وموجة الفرح تتحرك في ، جذور قلبي :
« ستجدين انني تمساح عجوز سقطت اسنانه . لن أقوى على أكلك حتى لو أردت » . قدرت انني اصغرها بخمسة عشر عاماً على الأقل ، امرأة في حدود الأربعين ، معها حدثت لها من التجارب فإن الزمن قد عامل جسدها بجنو . التجاعيد الدقيقة على جبهتها وعلى اركان فيها لا تقول لك انها شاخت ، بل تقول انها نضجت .

حينئذ فقط سألتها عن اسمها فقالت : « إيزابيلا سيمور » .
رددته مرتين ، وأنا أملاً به فهي ، كأنني آكل ثمرة كمثرى .

« وانت ما اسمك ؟ »

« أنا .. أمين . أمين حسن » .

« سأسميك حسن » .

ومع الشواء والنبيذ ، انفرجت اساريرها ، وقدفق حب تحس به نحو العالم بأسره ، عليّ أنا . وأنا لا يعنيني حبها للعالم . ولا سحابة الحزن التي تعبر وجهها من آن لآن ، بقدر ما تعنيني حمرة لسانها حين تضحك ، واكتناز شفيتها ، والأسرار الكامنة في قاع فمها . وتخيلتها عارية ، وافحشت التخيل وهي تقول لي : « الحياة مليئة بالألم . لكن يجب علينا أن نتفاهل ، ونواجه الحياة بشجاعة » .

نعم أنا اعلم الآن ان الحكمة القريبة المنال ، تخرج من افواه البسطاء ، هي كل املنا في الخلاص . الشجرة تنمو ببساطة ، وجدك عاش وسيموت ببساطة . ذلك هو السر . صدقت يا سيدتي ، الشجاعة والتفائل . ولكن إلى ان يرث المستضعفون الأرض ، وتسرح الجيوش ، ويرعى الحمل آمناً بجوار الذئب ، ويلعب الصبي كرة الماء مع التمساح في النهر ، إلى ان يأتي زمان السعادة والحب هذا ، سأظل انا اعبر عن نفسي بهذه الطريقة الملتوية . وحين اصل لاهناً قمة الجبل ، وأغرس البيرق ، ثم ألتقط أنفاسي وأستجم - تلك يا سيدتي نشوة اعظم عندي من الحب ، ومن السعادة . ولهذا ، فأنا لا أنوي بك شراً ، إلا بقدر ما يكون البحر شريراً ، حين تتحطم السفن على صخوره ، وبقدر ما تكون الصاعقة شريرة حين تشق الشجرة نصفين . وتركزت الفكرة الأخيرة في رأسي ، بشعيرات على ذراعها الأيمن ، قريباً من الرسغ ، ولاحظت أن شعر ذراعها أكتف مما هو عند النساء عادة ، وقادني هذا إلى شعر آخر . لا بد انه فاعم غزير مثل نبات السعدة على حافة الجدول . وكأنا سرت الفكرة من ذهني إليها ، فاعتدلت في جلستها وقالت : « ما بالك تبدو حزيناً ؟ »

« هل أبعدو حزيناً ؟ أنا على العكس ، سعيد جداً » .

وعادت النظرة الحانية إلى عينيها ، ومدت يدها فأمسكت

يدي وقالت . « هل قادري أن أمي اسبانية ؟ »

« هذا إذن يفسر كل شيء . بفسر لقاءنا صدفة ، وتفاهمنا تلقائياً ، كأننا تعارفنا منذ قرون . لا بد أن جدي كان جندياً في جيش طارق ابن زياد . ولا بد أنه قابل جدتك ، وهي تجني العنب في بستان في أشبيلية . ولا بد أنه أحبها من أول نظرة ، وهي أيضاً أحبته . وعاش معها فترة ثم تركها وذهب إلى افريقيا . وهناك تزوج . وخرجت أنا من سلالة في افريقيا ، وأنت جئت من سلالة في اسبانيا . »

هذا الكلام ، والضوء الخافت أيضاً والنيبذ ، أسعدها ، فقررت لهاثا بالضحك وقالت :
« يا لك من شيطان . »

وتخيلت برهة . لقاء الجنود العرب لأسبانيا . مثلي في هذه اللحظة ، اجلس قبالة ايزابيلا سيمور ، ظمأ جنوني تبدد في شباب التاريخ في الشمال . انما أنا لا أطلب المجد ، فمثلي لا يطلب المجد .

وأدرت مفتاح الباب بعد شهر من حمى الرغبة ، وهي إلى جانبي ، أندلس خصب ، وقدها بعد ذلك عبر المر القصير إلى غرفة النوم ، ولفحتها رائحة الصندل المحروق والند ، فملاّت رئتيها بعبير لم تبكن تعلم أنه عبير قاتل . كنت تلك الأيام ، حين تصبح القمة مني على مد الذراع ، يعتريني هدوء تراجيدي . كل الحمى والوجيب في القلب ، والتوتر في العصب ،

يتحول إلى هدوء جراح وهو يشق بطن المريض . وكنت
 أعلم أن الطريق القصير الذي سرناه معاً إلى غرفة النوم ، كان
 بالنسبة لها طريقاً مضيئاً ، يعبق بعبير التامح والمحبة ، وكان
 بالنسبة لي الخطوة الأخيرة ، قبل الوصول إلى قمة الأثانية .
 وترثت عند حافة الفراش ، كأنني الخص تلك اللحظة في
 ذهني ، وألقيت نظرة موضوعية على الستائر الوردية والمرامات
 الكبيرة ، والأضواء الخدرة في أركان الحجرة ، ثم على تمثال
 البرونز المكتمل التكوين أمامي . ونحن في قمة المأساة
 صرخت بصوت ضعيف : « لا . لا » . هذا لا يجديك نفعاً
 الآن . لقد ضاعت اللحظة الخطيرة حين كان بوسعك الامتناع
 عن إتخاذ الخطوة الأولى . انني أخذتك على غرة ، وكان
 بوسعك حينئذ أن تقولي « لا » . أما الآن فقد جرفك تيار
 الأحداث ، كما يحرف كل انسان ، ولم يعد في مقدورك فعل
 شيء . لو أن كل انسان عرف متى يمتنع عن اتخاذ الخطوة
 الأولى ، لتغيرت أشياء كثيرة . هل الشمس شريرة حين تحيل
 قلوب ملايين البشر إلى صحاري تتعارك رمالها ويحف فيها
 حلق العندليب؟ وترثت وأنا أمسح براحة يدي ظاهر عنقها ،
 وأقبلها في منابح الإحساس . ومع كل لمسة ، مع كل قبلة ،
 أحس أن عضلة في جسدها ترتخي ، وتألق وجهها ولمعت
 عيناها بهريق خاطف ، واستطالت نظراتها كأنها تنظر إلي
 فتراني رمزاً ليس حقيقة . وسمعتها تقول لي بصوت متضرع
 مستسلم : « أحبك » ، فجارب صوتها هتاف ضعيف في أعماق

وعبي يدعوني أن أقف . لكن القمة صارت على بعد خطوة ،
وبعد ذلك التقط أنفاسي واستجم . ونحن في قمة الألم عبرت
برأسي سحائب ذكريات بعيدة قديمة كبخار يصعد من بحيرة
مالحة وسط الصحراء . وانفجرت هي ببكاء ممض محرق ،
واستسلمت أنا إلى نوم متوتر محموم .



كانت ليلة قائظة من ليالي شهر يوليو ، وكان النيل قد فاض ذلك العام احد فيضاناته تلك ، التي تحدث مرة كل عشرين او ثلاثين سنة ، وتصبح اساطير يحدث بها الآباء ابناءهم . وغمر الماء اغلب الأرض الممتدة بين الشاطيء وطرف الصحراء حيث تقوم البيوت ، وبقيت الحقول كجزيرة وسط الماء . وكان الرجال يتنقلون بين البيوت والحقول في قوارب صغيرة ، أو يقطعون المسافة سباحة ، وكان مصطفى سعيد حسب علمي يجيد السباحة . حدثني أبي ، فقد كنت في الخرطوم وقتها ، انهم سمعوا بعد صلاة العشاء صراخ نسوة في الحي ، فهرعوا الى مصدر الصوت فاذا الصراخ في دار مصطفى سعيد . كان من عادته ان يعود من حقله مع مغيب الشمس ، ولكن زوجته انتظرت دون جدوى . وذهبت تسأل عنه هنا وهناك ، فاخبروها انهم رأوه في حقله والبعض ظن انه عاد الى بيته مع بقية الرجال . وانكبت البلد كلها على الشاطيء . الرجال في ايديهم المصابيح وبعضهم في القوارب . وظلوا

يبحثون الليل كله دون جدوى . وارسلوا اشارات تليفونية الى مركز البوليس على امتداد النيل حتى كرمه . ولكن الجثث التي حملها الموج الى الشاطئ ذلك الاسبوع لم تكن بينها جثة مصطفى سعيد . وفي النهاية اخلدوا الى الرأي انه لا بد قد مات غرقاً ، وان جثمانه قد استقر في بطون التامسح التي يغص بها الماء في تلك المنطقة .

أما أنا ، فانه يخامرني ذلك الاحساس الذي اعتراني ليلة سمعته ، فجأة وعلى غير استعداد مني ، يقرأ شعراً انكليزياً ، وهو ممسك كأس الخمر بيده ، دافئاً قامته في الكرسي ، ممدداً رجليه ، ضوء المصباح ينمكس على وجهه ، وعيناه سارحتان كما خيل لي في آفاق داخل نفسه . والظلام حولنا في الخارج كأنه قوى شيطانية تتضافر على خنق ضوء المصباح . احياناً تخاطر لي فجأة تلك الفكرة المزعجة ان مصطفى سعيد لم يحدث اطلاقاً ، وانه فعلاً اكدوبة ، أو طيف أو حلم ، أو كابوس ، ألم بأهل القرية تلك ، ذات ليلة داكنة خانقة ، ولما فتحو اعينهم مع ضوء الشمس لم يروه .

كان الليل قد بقي اقله حين قمت من عند مصطفى سعيد ، وخرجت وأنا أشعر بالتعب - ربما من طول الجلوس - ومع ذلك لم أكن أرغب في النوم ، فمضيت اتسكع في شوارع البلد الضيقة المتعرجة ، تلامس وجهي نسائم الليل الباردة التي تهب من الشمال محملة بالندى ، محملة برائحة زهور الطلح وروث البهائم ، ورائحة الأرض التي رويت لتوها بالماء بعد ظمأ أيام ، ورائحة

قناديل الذرة في منتصف نضجها ، وعبير اشجار الليمون ،
كان البلد كعادته صامتاً في تلك الساعة من الليل ، الا من
طققة مكنة الماء على الشاطيء ونباح كلب من حين لآخر ،
وصياح ديك منفرد احس بالفجر قبل الاوان ، يحاربه صياح
ديك آخر ، ثم يخيم الصمت . ومرت بيت ود الرئيس
الوطيء عند منعطف الدرب ، فرأيت من الطاقة الصغيرة ضوءاً
خافتاً ، وسمعت زوجة ود الرئيس تصرخ باللذة . واحست بالحجل
لاني اطلعت على أمر لم يكن من حقي ان أطلع عليه . لم يكن
يحق لي ان اظل يقظاً اتسكع في شوارع البلد ، وبقية الناس في
أسرهم ، انني اعرف هذه القرية شارعاً شارعاً ، وبيتاً بيتاً ، واعرف
أيضاً القباب العشر وسط المقبرة في طرف الصحراء اعلى البلد .
والقبور ايضاً ، اعرفها واحداً واحداً ، زررتها مع ابي وزررتها مع امي
وزررتها مع جدي ، وأعرف ساكنيها الذين ماتوا قبل أن يولد
أبي والذين ماتوا بعد ولادتي . وقد شيعت مع المشيعين منهم
أكثر من مائة ، أساعد في حفر التربة ، واقف على حافة القبر
في زحام الناس ريثما يوسد الميت بججارتة ، واهيل التراب .
فعلت ذلك مع أهل البلد في الصباح ، وفي حمارة القيظ أشهر
الصيف ، وبالليل في أيدينا المصابيح . والحقول أيضاً أعرفها ،
منذ كانت سواقي ، وأيام القحط حين هجرها الرجال وتحوات
الأرض الخصبة أرضاً بلقماً تسفوها الريح . ثم جاءت مكنتات
الماء وجاءت الجمعيات التعاونية ، وعاد من نزح من الرجال ،
وعادت الأرض كما كانت ، تنتج الذرة في الصيف والقمح في

الشتاء . كل هذا رأيته منذ فتحت عيني على الحياة ، ولكنني
أبدأ لم أرَ القرية في مثل هذه الساعة في أواخر الليل . لا بد
ان تلك النجمة الكبيرة الزرقاء المتوهجة هي نجمة الصباح . السماء
تبدو أقرب إلى الأرض في مثل هذه الساعة ، قبيل الفجر ،
والبلد يلفها ضوء باهت يجعلها كأنها معلقة بين السماء والأرض .
وتذكرت وأنا أعبر رقعة الرمل التي تفصل بين بيت ود الرئيس
وبيت جدي ، تلك الصورة التي رسمها مصطفى سعيد ،
تذكرتها بنفس إحساس الخجل الذي اعتراني حين سمعت
مناغاة ود الرئيس مع زوجته . فخذان بيضاوان مفتوحتان .
ووصلت عند بيت جدي فسمعت يتلو أوراده استعداداً للصلاة
الصبح . ألا ينام أبداً ؟ صوت جدي يصل ، كان آخر صوت
أسمعه قبل أن أنام وأول صوت أسمعه حين أستيقظ . وهو
على هذه الحال لا أدري كم من السنين كأنه شيء ثابت وسط
عالم متحرك وأحسست فجأة بروحي تتعش كما يحدث
أحياناً أثر إرهاق طويل ، وصفا ذهني ، وتبخرت الأفكار
السوداء التي أثارها حديث مصطفى سعيد . البلد الآن ليس
معلقاً بين السماء والأرض ، ولكنه ثابت ، البيوت ثابتة ؟
والشجر ، شجر ، والسماء صافية ولكنها بعيدة . هل كان من
المحتمل أن يحدث لي ما حدث لمصطفى سعيد ؟ قال انه
أكذوبة ؟ فهل أنا أيضاً أكذوبة ؟ انني من هنا . أليست هذه حقيقة
كافية ؟ لقد عشت أيضاً معهم ، ولكنني عشت معهم على السطح ، لا
أحبهم ولا أكرهم . كنت أطوي ضلوعي على هذه القرية الصغيرة ،

أراها بعين خيالي أينما التفت . أحياناً في أشهر الصيف في لندن ، أثر هطلة مطر ، كنت أشم رائحتها . في لحظات خاطفة قبيل مغيب الشمس ، كنت أراها . في أخريات الليل ، كانت الأصوات الأجنبية تصل إلى أذني كأنها أصوات أهلي هنا . أنا ، لا بد ، من هذه الطيور التي لا تعيش إلا في بقعة واحدة من العالم . صحيح انني درست الشعر ، بيد أن هذا لا يعني شيئاً . كان من الممكن أن أدرس الهندسة أو الزراعة أو الطب . كلها وسائل لكسب العيش . الوجوه هناك ، كنت أتخيلها ، قمحية أو سوداء ، فتبدو وجوهاً لقوم أعرفهم . هناك مثل هنا ، ليس أحسن ولا أسوأ . ولكنني من هنا ، كما أن النخلة القائمة في فناء دارنا ، نبتت في دارنا ولم تنبت في دار غيرها . وكونهم جاءوا إلى ديارنا ، لا أدري لماذا ، هل معنى ذلك اننا نسمم حاضرتنا ومستقبلنا انهم سيخرجون من بلادنا ان عاجلاً أو آجلاً ، كما خرج قوم كثيرون عبر التاريخ من بلاد كثيرة . سكك الحديد ، والبواخر ، والمستشفيات والمصانع ، والمدارس ، ستكون لنا ، وسنتحدث لغتهم ، دون إحساس بالذنب ولا إحساس بالجميل . سنكون كما نحن ، قوم عاديون ، وإذا كنا أكاذيب ، فنحن أكاذيب من صنع أنفسنا .

مثل هذه الأفكار أوصلتني إلى فراشي ، وصاحبتي بعد ذلك إلى الخرطوم حيث تسلمت عملي في مصلحة المعارف . مات مصطفى سعيد منذ عامين ولكنني ما أفتأ أقابله من حين

لآخر . لقد عشت خمسة وعشرين عاماً ، وأنا لم أسمع به ولم
 أره . ثم ، هكذا فجأة أجده في مكان لا يوجد فيه أمثاله .
 وإذا بمصطفى سعيد ، رغم ارادتي ، جزء من عالمي ، فكرة
 في ذهني ، طيف لا يريد أن يمضي في حال سبيله . وإذا
 إحساس بعيد بالخوف ، بأنه من الجائز الا تكون البساطة هي
 كل شيء . مصطفى سعيد قال ان جدي يعرف السر .
 الشجرة تنمو ببساطة ، وجدك عاش وسيموت ببساطة .
 هكذا . لكن هب انه كان يسخر من بساطتي ؟ في رحلة
 بالقطار بين الخرطوم والأبيض ، كنت معي في نفس القمرة
 موظف متقاعد . حين تحرك القطار من كوستي كان الحديث
 قد وصل بنا إلى أيام دراسته . وعلمت منه ان عدداً من
 رؤسائي في وزارة المعارف كانوا معاصريه في المدرسة ،
 وبعضهم كان يزامله في نفس الفصل . ومضى الرجل يذكر ان
 فلاناً في وزارة الزراعة كان زميله ، والمهندس فلاناً كان في
 الفصل الذي أمامه ، وفلاناً ، التاجر الذي اغتنى أيام الحرب ،
 كان من أبلد خلق الله في فصلهم ، والجراح الشهير فلاناً كان
 أحسن جناح أيمن في المدرسة كلها أيامهم . وفجأة رأيت وجه
 الرجل يضيء ، وعينه تلمعان ، وقال في صوت متحمس
 منفعلي : « غريبة . تصور انني نسيت أنبغ تلميذ في فصلنا ،
 ولم يخطر على بالي منذ ترك المدرسة . الآن فقط تذكرته .
 نعم ، مصطفى سعيد » .

مرة أخرى ذلك الإحساس ، بأن الأشياء العادية أمام

عينيك تصبح غير عادية . رأيت نافذة القمرة وبابها يلتقيان ،
وخيل لي أن الضوء المنعكس على نظارة الرجل ، في لحظة
لا تزيد عن طرفة العين ، يتوهج توهجاً خاطفاً كأنه شمس في
رابعة النهار . ولا بد أن الدنيا في تلك اللحظة بدت مختلفة
بالنسبة للأمور المتقاعد أيضاً ، إذ أن تجربة كاملة كانت
خارج وعيه أصبحت فجأة في متناول اليد . حين رأيت وجهه
أول مرة ، قدرت أنه في منتصف الستين . وأنظر إليه الآن
وهو يستطرد في سرد ذكرياته البعيدة ، فأرى رجلاً لا يزيد
 يوماً واحداً عن الأربعين .

« نعم ، مصطفى سعيد كان أنبغ تلميذ في أيامنا . كنا
في فصل واحد . كان يجلس في الصف الذي أمام صفنا
مباشرة . ناحية اليسار . يا للغرابة ، كيف لم يخطر على بالي
قبل الآن مع أنه كان معجزة في ذلك الوقت ؟ كان أشهر
طالب في كلية غردون ، أشهر من أعضاء التيم لكرة القدم ،
ورؤساء الداخليات ، والخطباء في الليالي الأدبية ، والكتاب
في جرائد الحائط ، والممثلين الدائمي الصيت في فرق الدراما .
لم يكن له نشاط من هذا القبيل إطلاقاً . كان منعزلاً ومتعالياً ،
يقضي أوقات فراغه وحده ، إما في القراءة أو في المشي
مسافات طويلة . كنا جميعاً داخلين تلك الأيام ، في كلية
غردون حتى أبناء العاصمة المثلة . كان نابغة في كل شيء ،
لم يوجد شيء يستعصي على ذهنه المجيب . كانت المدرسون
يكلموننا بلهجة ويكلمونه هو بلهجة أخرى . خصوصاً مدرسو

اللغة الانجليزية ، كانوا كأنما يلقون الدرس له وحده دون بقية التلاميذ . »

وصمت الرجل برهة ، فأحسست برغبة شديدة أن أقول انني أعرف مصطفى سعيد ، وإن الظروف ألقت بي في طريقه ، فقص علي ، ذات ليلة مظلمة قاتظة ، قصة حياته ، وإنه قضى آخر أيامه في قرية مغمورة الذكر عند منحني النيل ، وإنه مات غرقاً ، وربما انتحاراً ، وجعلني أنا دون سائر الناس وصياً على ولديه . لكنني لم أقل شيئاً ، إنما المأمور المتقاعد هو الذي استطرد :

قطع مصطفى سعيد مرحلة التعليم في السودان قفزاً — كان بالفعل كأنه يسابق الزمن. وبينما ظللنا نحن بعده في كلية غردون ، ارسل هو في بعثة الى القاهرة وبعدها الى لندن . كان اول سوداني يرسل في بعثة الى الخارج . كان ابن الانكليز المدلل . وكنا جميعاً نحسده ، ونتوقع ان يصير له شأن عظيم . نحن كنا ننطق الكلمات الانكليزية كأنها كلمات عربية . لا نستطيع ان نسكن حرفين متتاليين . أما مصطفى سعيد فقد كان يمجج فمه ، ويمط شفثيه ، وتخرج الكلمات من فمه كما تخرج من أفواه أهلها . كان ذلك يملؤنا غيظاً واعجاباً في الوقت نفسه . وكنا نطلق عليه ، بخليط من الاعجاب والحقده « الانكليزي الأسود » . وعلى ايامنا ، كانت اللغة الانكليزية هي مفتاح المستقبل — لا تقوم لأحد قائمة بدونها . كلية غردون كانت مدرسة ابتدائية . كانوا يعطونها من العلم ما يكفي فقط للملء

الوظائف الحكومية الصغرى - أول ما تخرجت ، اشتغلت
محاسباً في مركز الفاشر . وبعد جهد جهيد قبلوا أن اجلس
لامتحان الادارة . وقضيت ثلاثين عاماً نائباً مأمور . تصور .
وقبل أن احال على المعاش بعامين اثنين فقط رقيت مأموراً .
كان مفتش المركز الانكليزي الها يتصرف في رقعة اكبر من
الجزر البريطانية كلها ، يسكن في قصر طويل عريض مملوء
بالخدم ومحاط بالجند . وكانوا يتصرفون كالآلهة . يسخروننا
نحن الموظفين الصغار أولاد البلد لجلب العوائد ، ويتذمر الناس
منا ويشكون الى المفتش الانكليزي . وكان المفتش الانكليزي
طبعاً هو الذي يغفر ويرحم . هكذا غرسوا في قلوب الناس
بفضنا ، نحن أبناء البلد ، وحبهم هم المستعمرون الدخلاء .
وتأكد من كلامي هذا يا بني . ألم تستقل البلد الآن ؟ ألم
نصبح احراراً في بلادنا ؟ تأكد انهم احتضنوا أرذال الناس .
ارذال الناس هم الذين تبوأوا المراكز الضخمة ايام الانكليز .
كنا واثقين ان مصطفى سعيد سيصير له شأن يذكر . كان ابوه
من العبايدة ، القبيلة التي تعيش بين مصر والسودان . انهم الذين
هربوا سلاطين باشا من اسر الخليفة عبد الله التعايشي ، ثم بعد
ذلك عملوا رواداً لجيش كتشنر حين استعاد فتح السودان .
ويقال ان امه كانت رقيقاً من الجنوب . من قبائل الزاندي أو
الباريا ، الله أعلم . الناس الذين ليس لهم أصل ، هم الذين
تبوأوا اعلى المراتب ايام الانكليز .

وكان المأمور المتقاعد يغط في نوم مريح ، حين مر القطار

على خزان سنار ، الخزان الذي بناه الانكليز عام ١٩٢٦ ،
متجهاً غرباً الى الأبيض ، على خط حديدي وحيد ، ممتد عبر
الصحراء ، كأنه جسر من الجبال بين جبلين شرسين ، بينها
هوة سحيقة ليس لها قرار . مسكين مصطفى سعيد . كان
مفروضاً أن يكون له شأن بمقاييس المفتشين والمأمير . ولكنه
لم يجد حتى قبراً يريح جسده ، في هذا القطر الممتد مليون
ميل مربع . وتذكرت ما قاله ان القاضي قبل ان يصدر عليه
الحكم في الاولد بيلي قال له : « انك يا مسر مصطفى سعيد ،
رغم تفوقك العلمي ، رجل غبي . ان في تكوينك الروحي
بقعة مظلمة ، لذلك فانك قد بددت انبل طاقة يمنحها الله
للناس : طاقة الحب » . وتذكرت أيضاً اني حين خرجت
من بيت مصطفى سعيد تلك الليلة ، كان القمر المالح قد
ارتفع مقدار قامة الرجل في الافق الشرقي ، وانني قلت في
نفسي أن القمر مقلم الاظافر . لا ادري لماذا خيل لي ان
القمر مقلم الاظافر ؟ .

وفي الخرطوم ايضاً ، عرض لي طيف مصطفى سعيد ،
بعد محادثتي مع المأمور المتقاعد باقل من شهر ، كأنه جن
اطلق من سجنه ، سيظل بعد ذلك يوسوس في آذان البشر ،
ليقول ماذا ؟ لا ادري . كنا في بيت شاب سوداني يحاضر في
الجامعة ، كنا انا وهو زملاء دراسة في انكلترا . وكان بين
الحاضرين رجل انكليزي يعمل في وزارة المالية . وصل بنا
الحديث الى موضوع الزواج المختلط . وتحول الحديث من نقاش

عمومي الى كلام عن حالات محددة . ثم من هم المتزوجون من أوربيات؟ ثم من انكليزيات؟ من هو اول سوداني تزوج انكليزية؟ فلان ؟ لا. فلان ؟ لا . وفجأة... مصطفى سعيد . قالها الشاب المحاضر في الجامعة ، وعلى وجهه احساس الفرح ذاته الذي لمحتة على وجه المأمور المتقاعد . ومضى الشاب يقول ، تحت سماء الخرطوم المرصعة بالنجوم في اوائل فصل الشتاء : « مصطفى سعيد كان اول سوداني تزوج انكليزية ، بل انه كان أول سوداني تزوج أوروبية اطلاقاً . أظن انكم لم تسمعوا به ، فقد نزع من زمن تزوج في انكلترا وتجنس بالجنسية الانكليزية . غريب ان احداً هنا لا يذكره ، مع انه قام بدور خطير في مؤامرات الانكليز في السودان في اواخر الثلاثينات . انه من اخلص اعوانهم . وقد استخدمته وزارة الخارجية البريطانية في سفارات مريبة في الشرق الاوسط . وكان من مكريتي المؤتمر الذي انعقد في لندن سنة ١٩٣٦ . أنه الآن مليونير ، ويعيش كاللوردات في الريف الانكليزي » .

« وسمعت نفسي أقول دون وعي ، بصوت مسموع : مصطفى سعيد ترك ، بعد موته ، ستة أفدنة ، وثلاث بقرات وثوراً ، وحمارين ، واحدى عشرة عنزا ، وخمس نعجات ، وثلاثين نخلة ، وثلاثا وعشرين شجرة بين سنط وطلح وحرارز ، وخمسا وعشرين شجرة ليمون ومثلها برتقال ، وتسعة أرادب قمح وتسعة ذرة ، وبيتاً مكوناً من خمس غرف ، وديوان ، وغرفة واحدة من الطوب الاحمر ، مستطيلة الشكل ، ذات

نوافذ خضراء ، سقفها ليس مسطحاً كبقية الغرف ولكنه
مثلث كظهر الثور ، وتسعمائة وسبعة وثلاثين جنياً وثلاثة قروش
 وخمسة ملائيم نقداً .

في لحظة لا تزيد عن مقدار ما يشيل البرق ثم يختفي ،
رأيت في عيني الشاب الجالس قبالي شعوراً واضحاً حياً
ملوساً ، بالذعر رأيت في اتساع حديق العنين ، وارتعاش الجفن
وارتخاء الفك الأسفل . اذا لم يكن خائفاً فلماذا سألني هذا
السؤال : « هل أنت أبني ؟ » .

سألني هكذا دون ان يدري هو الآخر لماذا نطق بهذه
الكلمات الثلاث ، وهو يعلم تمام العلم من أنا . انه لم يكن
زميلي في الدراسة ، لكننا كنا في المجلتر في وقت واحد ،
وقد جمعنا مناسبات عدة وشربنا البيرة اكثر من مرة معاً ،
في حمامات نايتسبرج . هكذا في لحظة خارج حدود الزمان
والمكان ، تبدو له الاشياء هو الآخر ، غير حقيقية . يبدو له
كل شيء محتملاً . هو ايضاً قد يكون ابن مصطفى سعيد ، او
أخاه او ابن عمه . العالم في تلك اللحظة القصيرة ، بمقدار ما
يطرف جفن العين ، احتمالات لا حصر لها ، كأن آدم وحواء
سقطا لتوهما من الجنة .

كل تلك الاحتمالات استقرت على حال واحد حين ضحكت
وعاد العالم كما كان ، اشخاصاً ذوي وجوه معروفة واسماء
معروفة ومهن معروفة ، تحت سماء الخرطوم المرصعة بالنجوم
اوائل فصل الشتاء . ضحك هو الآخر وقال : « يا لي من

مجنون ! طبعاً انت لست ابن مصطفى سعيد ولا قريبه وانت
لم تسمع به من قبل في حياتك انني نسيت انكم معشر
الشعراء ، لكم سرحات وشطحات .

وفكرت في شيء من المرارة ، انني في زعم الناس شاعر
- سواء أردت او لم أرد ، لأنني قضيت ثلاثة اعوام انقب في
حياة شاعر مغمور من شعراء الانكليز ، وعدت لادرس الأدب
الجامعي في المدارس الثانوية قبل ان يرقوني مفتشاً للتعليم
الابتدائي .

وهنا تدخل الرجل الانكليزي وقال انه لا يدري صحة
ما قيل عن الدور الذي لعبه مصطفى سعيد في مؤامرات
السياسة الانكليزية في السودان . الذي يعلمه ان مصطفى سعيد
لم يكن اقتصادياً يركن اليه : « انني قرأت بعض ما كتب
عما اسماه اقتصاد الاستعمار ، . الصفة الغالبة على كتاباته ان
احصائياته لم يكن يوثق بها . كان ينتمي الى مدرسة الاقتصاديين
الفابيانين الذين يخفون وراء ستار التعميم هروباً من مواجهة
الحقائق المدعمة بالارقام . العدالة ، المساواة ، الاشتراكية ..
بجرد كلمات . رجل الاقتصاد ليس كاتباً كتشارلز دكنز ، ولا
سياً كروزفلت . انه اداة ، آلة ، لا قيمة لها بدون
الحقائق والارقام والاحصائيات . أقصى ما يستطيع ان يفعله
هو ان يحدد العلاقة بين حقيقة واخرى ، بين رقم وآخر . اما
ان تجعل الارقام تقول شيئاً دون آخر ، فذلك شأن الحكام
ورجال السياسة . الدنيا ليست في حاجة الى مزيد من رجال

السياسة . لا . مصطفى سعيد هذا لم يكن اقتصادياً يوثق به .
وسألته ان كان قد قابل مصطفى سعيد .

« لا . انني لم اقبله . كان قد ترك اكسفورد قبلي بمدة
لكنتني سمعت نتقا هنا وهناك . يظهر أنه كان زير نساء . خلق
لنفسه اسطورة من نوع ما . الرجل الأسود الوسيم ، المدال في
الأوساط البوهيمية . كان كما يبدو واجهة يعرضها افراد الطبقة
الارستقراطية الذين كانوا في العشرينات واول الثلاثينات
يتظاهرون بالتحرر . ويقال أنه كان صديقا للورد فلان ولورد
علان . وكان أيضاً من الاثريين عند اليسار الانكليزي . ذلك
من سوء حظه ، لأنه يقال أنه كان ذكياً . لا يوجد على وجه
الأرض أسوأ من الاقتصاديين اليساريين ، حتى منصبه الاكاديمي
— لا أدري تماماً ماذا كان — يخل إلى أنه حصل عليه لأسباب
من هذا النوع . كأنهم أرادوا أن يقولوا : أنظروا كم نحن
متساحون ومتحررون ! هذا الرجل الافريقي كأنه واحد
منا ! أنه تزوج أبنتنا ويعمل معنا على قدم المساواة ، هذا
النوع من الاوربيين لا يقل شراً ، لو تدرون ، عن المهانين
الذين يؤمنون بتفوق الرجل الابيض في جنوبي افريقيا وفي
الولايات الجنوبية في الولايات المتحدة . نفس الطاقة العاطفية
المتطرفة ، تتجه الى أقصى اليمين أو أقصى اليسار ، لو انه
فقط تفرغ للعلم لوجد أصدقاء حقيقيين من جميع الأجناس ،
ولكنتم قد ستمتم به هنا . كان قطعاً سيعود وينفع بعلمه هذا
البلد الذي تمحكم فيه الخرافات . ها أنتم الآن تؤمنون بخرافات

من نوع جديد. خرافة التصنيع ، خرافة التأميم الوحدة العربية
خرافة الوحدة الافريقية . انكم كالأطفال تؤمنون ان في
جوف الأرض كنزاً ستحصلون عليه بمعجزة ، وستحلون جميع
مشاكلكم ، وتقيمون فردوساً . أو هام . أحلام يقظة . عن
طريق الحقائق والارقام والاحصائيات ، يمكن ان تقبلوا
واقعكم وتتعايشوا معه وتحاولوا التغيير في حدود طاقاتكم .
وقد كان بوسع رجل مثل مصطفى سعيد ان يلعب دوراً لا بأس
به في هذا السبيل ، ولو انه لم يتحول إلى مهرج بين يدي
حفنة من الانكليز المعتمدين .

وبينا انبرى منصور يفند آراء رتشارد ، أخذت أنا إلى
أفكاري ما جدوى النقاش ؟ هذا الرجل - رتشارد - هو
الآخر متعصب . كل أحد متعصب بطريقة أو بأخرى . لعلنا
نؤمن بالخرافات التي ذكرها ، ولكنه يؤمن بخرافة جديدة ،
خرافة عصرية ، هي خرافة الاحصائيات . ما دمنا سنؤمن
بالله ، فليكن إلهاً قادراً على كل شيء . أما الإحصائيات !
الرجل الأبيض ، مجرد انه حكمنا في حقبة من تاريخنا ،
سيظل أمداً طويلاً يحس نحونا باحساس الاحتقار الذي يحسه
القوي تجاه الضعيف . مصطفى سعيد قال لهم : « انني
جئتكم غازياً . عبارة ميلودرامية ولا شك . لكن مجيئهم ،
هم أيضاً ، لم يكن مأساة كما تصور نحن ، ولا نعمة كما يصورون
هم . كان عملاً ميلودرامياً سيتحول مع مرور الزمن إلى خرافة
عظمى وسمعت منصور يقول لرتشارد : « لقد نقلتم إلينا مرض

اقتصادكم الرأسمالي . ماذا أعطيتمونا غير حفنة من الشركات
الاستعمارية نزفت دماءنا وما تزال ؟ » وقال له رتشارد :
« كل هذا يدل على أنكم لا تستطيعون الحياة بدوننا . كنتم
تشكون من الاستعمار ، ولما خرجنا خلقتم أسطورة الاستعمار
المستتر . يبدو أن وجودنا ، بشكل واضح أو مستتر ،
ضروري لكم كالماء والهواء . ولم يكونا غاضبين . كنا يقولان
كلاماً مثل هذا ويضحكان على مرمى حجر من خط الاستواء ،
تفصل بينهما هوة تاريخية ليس لها قرار .

لكن أرجو ألا يتبادر الى اذهانكم ، يا سادتي ، ان مصطلفى
سميد أصبح هوساً يلزمى في حلى وترحالى . كانت أحياناً تر
أشهر دون ان يخطر على بالي انه مات على اى حال ، غرقاً ،
أو انتحاراً ، الله وحده يعلم . آلاف الناس يموتون كل يوم .
ولو وقفنا نتمعن لماذا مات كل منهم ، وكيف مات - ماذا
يحدث لنا نحن الاحياء ؟ الدنيا تسير ، باختيارنا أو رغم
انوفنا . وأنا كملايين البشر ، امير ، اتحرك بحكم العادة في
الغالب ، في قافلة طويلة ، تصعد وتنزل ، تخط وترحل .
والحياة في هذه القافلة ليست كلها شراً . انتم ولا شك تدركون
ذلك . قد يكون السير شاقاً بالنهار ، البوادي تترامى امامنا
كبحور ليس لها ساحل . نتصب عرقاً . ونجف حلقنا من
الظما . ونبلغ الحد الذي نظن ان ليس بعده متقدم . ثم تغيب
الشمس . ويبرد الهواء . وتتألق ملايين النجوم في السماء . نطعم
ونشرب حينئذ . ويغني مغني الركب . بعضنا يصلي جماعة
وراء الشيخ ، وبعضنا يتحلق حلقات يرقصون ويغنون

ويصفقون . وفوقنا سماء دافئة رخيمة . وحيانا نسري بالليل
ما طاب لنا السري ، وحين يبين الخيط الأبيض من الخيط
الاسود نقول : « عند انبلاج الصبح يحمد القوم السري » .
واذا كان السراب احيانا يخدعنا ، واذا كانت رسومنا المحمومة
بفعل الحر والعطش تغور احيانا بأفكار لا اساس لها من الصحة
فلا جرم . اشباح الليل تتبخر مع الفجر ، وحمى النهار تبرد مع
نسيم الليل . هل ثمة وسيلة اخرى غير هذه ؟ هكذا كنت
اقضي شهرين كل سنة في تلك القرية الصغيرة عند منحى
النيل . النهر بعد أن كان يجري من الجنوب إلى الشمال ،
ينحني فجأة في زاوية تكاد تكون مستقيمة ، ويجري من
القرب إلى الشرق . المجرى هنا متسع وعميق ، ووسط الماء
جزر صغيرة مخضرة ، تحوم عليها طيور بيضاء . وعلى الشاطئين
غابات كثيفة من النخل ، وسواقي دائرة ، ومكنة ماء من
حين لآخر . الرجال صدورهم عارية ، يلبسون سراويل طويلة ،
يطعمون أو يزرعون حين تمر بهم الباخرة كقلعة عائمة وسط
النيل يرفعون قاماتهم ويلتفتون إليها برهة ثم يعودون إلى
ما كانوا فيه . انها تمر على هذا المكان وقت الضحى ، مرة في
الاسبوع ، وما تزال في ظلال النخل المنعكسة على الماء بقية
تتكسر حين يهزها الموج الذي تحدثه محركات الباخرة .
وتنطلق صفارة مبحوحة ، يسمعونها أهلي ولا شك في دورهم
وهم يشربون قهوة الضحى . من بعيد تبدو المحطة . رصيف
أبيض عليه طاوور من شجر الجميز . وتلمح على الشاطئين حركة

واضحة . بعض الناس على الحمير وبعضهم على الأقدام ، وقوارب ومراكب شراعية تتحرك من الشاطئ ، المقابل للمحطة . تدور الباخرة حول نفسها ، لكي لا تكون الحركات في مجرى التيار ، ويكون في استقبالها جمهور متوسط من الرجال والنساء . ذلك أبي وأولئك أعمامي وأولاد أعمامي وقد ربطوا حميرهم في شجر الحمير . لا يفصل ضباب بيني وبينهم هذه المرة ، فأنا قادم من الخرطوم ، فقط ، بعد غيبة لم تدم أكثر من سبعة أشهر . انني أراهم بعين واقعية . جلابيهم نظيفة ولكنها غير مكوية ، وعمائمهم أكثر بياضاً من جلابيهم ، شواربهم تتفاوت طويلاً وقصراً ، مواداً وبياضاً . بعضهم له لحى ، والذين ليست لهم لحى أهملوا حلاقتها . بين حميرهم حمارة سوداء لم أرها من قبل . ينظرون إلى الباخرة دون اكتراث إذ تلقي مراسيمها ويزدخم الناس عند مدخلها . انهم ينتظرونني في الخارج ، لا يهرولون لملاقاتي . ويصافحونني ويصافحون زوجتي على عجل ، ولكنهم يمتطرون الطفلة قبلاً ، يتناوبون حملها على أيديهم ، ربما تحملنا الحمير الى الحي . هذا حالى منذ كنت تلميذاً في المدرسة ، لم انقطع الا في غيبتى الطويلة تلك سبق ان حدثتكم عنها . وفي الطريق الى الحي اسألهم عن الحمارة السوداء فيقول ابى : « اعرابي غش عمك واخذ منه حمارته البيضاء التي تعرفها وفوقها خمسة جنيهاً ايضاً » . ولا ادري أي اعمامي غشه الاعرابي ، حتى اسمع صوت عمي عبد الكريم يقول : « عليّ الطلاق هذه اجمل حمارة في البلد

كلها . هذه جواد وليست حمارة . اذا شئت وجدت من يعطيني فيها ثلاثين جنيهًا » . ويضحك عمي عبد الرحمن ويقول : « اذا كانت جواداً فهي جواد عاقر . لا خير في حمارة لا تلد » . واسألهم عن محصول التمر هذا العام وانا اعلم اجابتهم سلفاً : « لا خير فيه » . يقولون ذلك بصوت واحد وكل سنة الاجابة نفسها ، وأنا ادرك أن الامر خلاف ما يزعمون . وتمر ببناء من الطوب الاحمر على ضفة النيل في منتصف تمامه ، واسألهم عنه ، فيقول عمي عبد المنان « شفعانة . لهم حول لا يستطيعون بناءها . حكومة كلام فارغ » . واقول له انني كنت هنا منذ سبعة اشهر فقط ، ولم يكونوا قد بدأوا بناءها بعد . لكن هذا لا يثني عمي عبد المنان ، فيقول : « كل الذي يفلحون فيه يجيئون الينا مرة كل عامين أو ثلاثة يجباهيرهم ولواريهم ولافتاتهم .. يعيش فلان ويستطع علان . كنا مرتاحين ايام الانكليز من هذه الدوشة » . وبالفعل يمر بنا جمع من الناس في لوري قديم وهم يهتفون : « عاش الحزب الوطني الديمقراطي الاشتراكي » . هل هؤلاء الناس الذين يطلق عليهم « الفلاحون » في الكتب ؟ لو قلت لجدي أن الثورات تصنع باسمه ، والحكومات تقوم وتقع من أجله ، لضحك . الفكرة تبدو شاذة فعلاً ، كما ان حياة مصطفى سعيد وموته في مكان مثل هذا يبدو شيئاً صعباً تصديقه . مصطفى سعيد كان يحضر الصلوات في المسجد بانتظام . لماذا كان يبالغ في تمثيل ذلك الدور المضحك ؟ هل جاء الى هذه القرية النائية

يطلب راحة البال ؟ لعل الاجابة في تلك الغرفة المستطيلة ذات النوافذ الخضراء . ماذا أتوقع ؟ هل أتوقع أن أجده جالساً على كرسي وحده في الظلام ؟ أم أتوقع ان اجده معلقاً من رقبته بجبل يتدلى من السقف ؟ والرسالة التي تركها في ظرف مختوم بالشمع الاحمر ، متى كتبها ؟

« انني اترك زوجتي وولدي وكل مالي من متاع الدنيا في ذمتك ، وأنا أعلم انك ستكون أميناً على كل شيء . زوجتي تعلم بكل مالي ، وهي حرة التصرف . اني واثق بحكمتها . ولكنني أطلب منك أن تؤدي هذه الخدمة لرجل لم يسعد بالتعرف اليك كما ينبغي - أن تشمل أهل بيتي برعايتك وأن تكون عوناً ومشيراً ونصيحاً لولدي ، وأن تجنبهما ما استطعت مشقة السفر . جنبهما مشقة السفر . وساعدهما أن ينشأ نشأة عادية ويعملا عملاً مفيداً . وأنا أترك لك مفتاح غرفتي الخاصة ولعلك تجد فيها ما تبحث عنه . أنا أعلم انك تعاني من رغبة استطلاع مفرطة بشأني ، الامر الذي لا اجده له مبرراً . فحياتي مهما كان من امرها ليس فيها عظة أو عبرة لاحد . ولولا ادراكى ان معرفة اهل القرية بماضي كان سيعوقني عن مواصلة الحياة التي اخترتها لنفسى بينهم ، لما كان ثمة مبرر للكتمان . وانت في حل من العهد الذي قطعته على نفسك تلك الليلة . فتحدث ما شئت . واذا لم تستطع ان تقاوم رغبة الاستطلاع في نفسك ، فستجد في تلك الغرفة ، التي لم يدخلها أحد غيري من قبل ، قصاصات ورق وشدوراً متفرقة ومحاولات لكتابة

مذكرات وغير ذلك . أرجو على أي حال أن تساعدك على
 ترجية الساعات التي لا تجدد وسيلة أفضل لقضاها . وأنا
 أترك لك تقدير الوقت المناسب لتعطي ولدي مفتاح الغرفة
 وتساعدنا على ادراك حقيقة أمري . انه مهم ان يعلم اي
 نوع من الناس كان أبوما - اذا كان ذلك ممكناً أصلاً - وليس
 هدفي ان يحسنا بي الظن ، حسن الظن هو آخر ما أرمي اليه -
 ولكن لعل ذلك يساعدنا على معرفة حقيقتها ، ولكن في
 وقت لا تكون المعرفة فيه خطراً . اذا نشأ مشبعين بهواء
 هذا البلد وروائح الوانه وتاريخه ووجوه أهله وذكرات
 فيضاناته وحصاداته وزراعاته فان حياتي ستحتل مكانها
 الصحيح كشيء له معنى الى جانب معان كثيرة اخرى اعلم
 مدلولاً . لا أدري كيف يفكران في حينئذ . قد يحسان نحوي
 بالرثاء ، وقد يحولاني بخيالهما الى بطل . هذا ليس مهما . المهم
 ان حياتي لن تجيء من وراء المجهول كروح شريرة تلحق بها
 الضرر . وكنت اتمنى أن أظل معهما ، اراقبهما يكبران امام
 عيني ويكونان على الأقل مبرراً لوجودي . انني لا أدري اي
 العاملين أكثر أنانية ، بقائي أم ذهابي . ومهما يكن فانه لا
 حيلة لي ، ولعلك تدرك قصدي اذا عدت بذاكرتك الى ماقلته
 لك تلك الليلة . لا جدوى من خداع النفس . ذلك النداء
 البعيد لا يزال يتردد في أذني . وقد ظننت أن حياتي وزواجي
 هنا سيسكتانه . ولكن لعلني خلقت هكذا ، أو ان مصيري
 هكذا ، مهما يكن معنى ذلك ، لا أدري . انني اعرف بعقلي

ما يجب فعله ، الامر الذي جربته في هذه القرية ، مع هؤلاء القوم السعداء . ولكن اشياء مبهمه في روحي وفي دمي تدفعني الى مناطق بعيدة تترأى لي ولا يمكن تجاهلها . واحسرتي اذا نشأ ولداي ، احدهما او كلاهما ، وفيها جرثومة هذه العدوى ، عدوى الرحيل . انني احملك الامانة لانني لمحت فيك صورة عن جدك . لا ادري متى اذهب يا صديقي ولكنني أحس أن ساعة الرحيل قد أزفت ، فوداعاً .

اذا كان مصطفى سعيد قد اختار النهاية ، فانه يكون قد قام بأعظم عمل ميلودرامي في رواية حياته . واذا كان الاحتمال الآخر هو الصحيح ، فان الطبيعة تكون قد مننت عليه بالنهاية التي كان يريد لها لنفسه . تصور . عز الصيف في شهر يوليو العتيق . النهر اللامبالي فاض كما لم يفيض منذ ثلاثين عاماً . الظلام يصهر عناصر الطبيعة جميعاً في عنصر واحد محايد ، أقدم من النهر ذاته وأقل منه اكترائاً هكذا يجب ان تكون نهاية هذا البطل . انما هل هي فعلا النهاية التي كان يبحث عنها لعله كان يريد لها في الشمال ، الشمال الاقصى ، في ليلة جليدية عاصفة ، تحت سماء لا نجوم لها ، بين قوم لا يعنهم أمره . نهاية الغزاة الفاتحين . ولكنهم ، كما قالوا ، تأمروا ضده ، المحلفون والشهود والمحامون والقضاة ليحرموه منها . هكذا قال : « رأى المحلفون أمامهم رجلاً لا يريد أن يدافع عن نفسه . رجلاً فقد الرغبة في الحياة . انني ترددت في تلك الليلة حين شققت جبين في أذني . » تعال معي . تعال ، . كانت

حياتي قد اكتملت ليلتها ، ولم يكن ثمة مبرر للبقاء . ولكنني
ترددت ، وخفت في اللحظة الحاسمة . وكنت أرجو أن تمنحني
الحكمة ما عجزت أنا عن تحقيقه . وكأننا أدركوا قصدي ،
فصمموا الا يعطوني آخر أمنية لي عندهم . حتى الكولونيل
همند الذي كنت أتوسم فيه الخير ، ذكر زيارتي لهم في لفربول ،
وانني تركت في نفسه أثراً حسناً . قال انه يعتبر نفسه انساناً
متحرراً ليس عنده تحيز ضد أحد . ولكنه رجل واقعي ،
وقد كان يرى أن زواجاً مثل ذلك لن ينجح . وقال أيضاً
ان ابنته آن وقعت تحت تأثير الفلسفات الشرقية في اكسفورد ،
وكانت مترددة بين اعتناق البوذية أو الاسلام . وهو لا يستطيع
أن يجزم اذا كان انتحارها بسبب أزمة روحية انتابتها ، أو
لأنها اكتشفت خداع مستر مصطفى سعيد لها . كانت آن
ابنته الوحيدة ، وقد عرفت لها وهي دون العشرين ،
فخدعتها وغررت بها وقلت لها نتزوج زواجاً يكون جسراً بين
الشمال والجنوب ، وحولت جذوة التطلع في عينيها الحضراوين
الى رماد . ومع ذلك يقف ابوها وسط المحكمة ويقول بصوت
هاديء انه لا يستطيع أن يجزم . هذا هو العدل واصل
اللعب ، كقوانين الحرب والحياد في الحرب . هذه هي القوة
التي تلبس قناع الرحمة ، المهم انهم حكموا عليه بالسجن ،
سبع سنوات فقط ، ورفضوا أن يتخذوا القرار الذي كان
عليه هو ان يتخذه بمحض ارادته . ويخرج من السجن ، ويتشرد
في أصقاع الارض ؛ من باريس الى كوبنهاجن الى دلهي الى

بانكوك ، وهو يحاول التسويف . وتكون النهاية بعد ذلك في قرية مغمورة الذكر على النيل ، ولا يستطيع المرء ان يجزم هل كانت اعتباطاً أو انه أسدل الستار بمحض ارادته . انما أنا لم أجيء الى هنا لافكر في مصطفى سعيد ، فها هي ذي بيوت القرية المتلاصقة من الطين والطوب الاخضر تشرئب بأعناقها أمامنا ؛ وحميرنا تحت السير لانها شمت بخياشيمها رائحة انبرسم والعلف والماء . هذه البيوت على حافة الصحراء ، كأن قوماً في عهد قديم أرادوا أن يستقروا ثم نفضوا أيديهم ورحلوا على عجل . هنا تبدأ أشياء . وتنتهي أشياء . ومنطقة صغيرة من هواء بارد رطب يأتي من ناحية النهر ، وسط هجير الصحراء ، كأنه نصف حقيقة وسط عالم مليء بالأكاذيب . أصوات الناس والطيور والحيوانات تتناهى ضعيفة الى الاذن كأنها وساوس ، وطقطقة مكنة الماء المنتظم تقوي الاحساس بالمستحيل . والنهر ، النهر الذي لولاه لم تكن بداية ولا نهاية ، يجري نحو الشمال ، لا يلوي على شيء ، قد يعترضه جبل فيتجه شرقاً ، وقد تصادفه وهدة من الأرض فيتجه غرباً ، ولكنه أن عاجلاً أو آجلاً يستقر في مسيره الحتمي ناحية البحر في الشمال .

وقفت عند باب دار جدي في الصباح - باب ضخم عتيق من خشب الحراز ، لا شك انه استوعب حطب شجرة كاملة ، صنعه ود البصير ، مهندس القرية الذي لم يتعلم النجارة في مدرسة ، كما كان يصنع عجلات السواقي وحلقاتها ، وأيضاً يحبر العظام ، ويكوي ويحجم ، ويتخصص كذلك في نقد الحمير ، قل أن يشتري أحد من أهل البلد حمارة دون مشورته . ود البصير لا يزال حياً إلى يومنا هذا ، ولكنه لم يعد يصنع مثل باب بيت جدي ، بعد أن أكتشفت الأجيال اللاحقة من أهل البلد أبواب خشب الزان وأبواب الحديد ، يجلبونها من ام درمان . والسواقي أيضاً . بار سوقها حين جاءت مكبات الماء . وسمعتهم يقهقهون ، فميزت ضحكة جدي النحيلة الخبيثة المنطلقة حين يكون على سجيته ، وضحكة ود الريس التي تخرج من كرش مملوء بالطعام دائماً ، وضحكة بكري السقي تأخذ لونها وطعمها من المجلس الذي يكون موجوداً فيه ، وضحكة بنت مجذوب القوية المسترجلة . تخيلت جدي جالساً

على فروة صلاته وفي يده مسبحة من خشب الصندل ،
تدور في حركة دائبة كقواريس الساقية . وبنت مجذوب
ودد الرئيس وبكري ، أصدقاؤه القدامى ، يجلسون على تلك
الأسرة الوطيئة ، التي لا تملأ أرجلها عن الأرض أكثر من
شبرين . ارتفاع السرير عن الأرض ، في زعم جدي ، من
الفرور ، وقصره من التواضع .. بنت مجذوب متكئة على
كوعها ، وفي اليد الأخرى سيجارة . ود الرئيس كأنه يخرج
الحكايات الحبيثة من أطراف شاربيه . وبكري يجلس وحسب .
هذه الدار الكبيرة ليست من الحجر ولا الطوب الأحمر ،
ولكنها من الطين نفسه الذي يزرع فيه القمح ، قائمة على
أطراف الحقل تماماً ، تكون امتداداً له . وهذا واضح من
شجيرات الطلح والسنت النامية في فناء الدار والنباتات التي
نمت في الحيطان نفسها حيث تسرب إليها الماء من الأرض
المزروعة . وهي دار فوضى قائمة دون نظام ، اكتسبت
هيئتها هذه على مدى أعوام طويلة : غرف كثيرة مختلفة
الأحجام ، بنيت بعضها لصق بعض في أوقات مختلفة ،
أما حسب الحاجة إليها أو لأن جدي توفر له شيء من المال
لم يجد وسيلة أخرى ينفقه فيها . غرف يؤدي بعضها إلى
بعض ، بعضها لها أبواب وطيئة لا بد أن تنحني كي تدخلها
وبعضها ليست لها أبواب إطلاقاً ، بعضها لها نوافذ كثيرة ،
وبعضها ليست لها نوافذ . حيطانها ملساء مطلية بمادة هي
خليط من الرمل الحشن والطين الأسود وزبالة البهائم ،

وكذلك السطوح ، والأسقف من جذع النخيل وخشب السنت
وجريد النخيل . دار متاهة ، باردة في الصيف ، دافئة في
الشتاء . إذا نظرت إليها من الخارج ، دون عطف ، أحسست
بها كياناً هشاً لن يقوى على البقاء ، ولكنها تغالب الزمن
بشيء كالمعجزة .

ودخلت من باب الحوش ، ونظرت إلى اليسار واليمين في
الفناء الواسع . هنالك تمر نشر على بروش ليجف . وهنالك
بصل وشطة . وهنالك أكياس قمح وفول وبعضها خيطت
أفواهه وبعضها مفتوح . وفي ركن عنز تأكل شعيراً وترضع
مولودا . هذه الدار مصيرها مرتبط بمصير الحقل ، إذا اخضر
الحقل اخضرت ، وحين يحتاج القحط الحقول يحتاجها هي
أيضاً . وأشم تلك الرائحة التي يمتاز بها بيت جدي ،
خليط من روائح متناثرة ، رائحة البصل والشطة والتمر والقمح
والفول واللوبية والحلبة ، أضف إليها رائحة البخور
الذي يعبق دائماً في بجر الفخار الكبير . رائحة تذكرني
بتقشف جدي في العيش ، وترفه في لوازم صلاته . الفروة التي
يصلي عليها ، وحين يشتد البرد يستعملها غطاء ، عبارة عن
جلود ثلاثة نمور مخيطة في جلد واسع . وارباق الصلاة من
النحاس عليه تصاوير ونقوش ، وله طشت من نحاس أيضاً .
وهو يفتخر خاصة بمسبحته لأنها من خشب الصندل ، ويداعب
حباتها ، ويمسح بها وجهه ويستنشق رائحتها . وكان إذا غضب
من أحد أحفاده ، ضربه بها على رأسه ، يقول ان ذلك يطرد

الشيطان . وهذه الأشياء جميعاً ، مثل غرف داره ، والنخل
في حقله ، لها تاريخ قصه علي جدي مراراً وتكراراً ، في كل
مرة يحذف شيئاً ويضيف شيئاً

وقمت عند باب الغرفة وأنا أستمرى ذلك الإحساس
العذب الذي يسبق لحظة لقائي مع جدي كلما عدت من السفر .
إحساس صاف بالعجب من أن ذلك الكيان العتيق ما يزال
موجوداً أصلاً على ظاهر الأرض . وحين أعانقه أستنشق
رائحته الفريدة التي هي خليط من رائحة الضريح الكبير في
المقبرة ورائحة الطفل الرضيع . وذلك الصوت النحيل
الطمئن ، يقوم جسراً بيني وبين الساعة القلقة التي لم تتشكل
بعد ، الساعات التي استوعبت أحداثها ومضت ، وأصبحت
لبينات في صرح له مدلولات وأبعاد . نحن بمقاييس العالم
الصناعي الأوربي ، فلاحون فقراء ، ولكنني حين أعانق جدي
أحس بالغنى ، كأنني نعمة من دقات قلب الكون نفسه .
انه ليس شجرة سنديان شائخة وارفة الفروع في أرض منت
عليها الطبيعة بالماء والخصب ، ولكنه كشجيرات السيل في
صحارى السودان ، مميكة اللحي حادة الأشواك ، تقهر
الموت لأنها لا تسرف في الحياة . وهذا وجه العجب . انه
عاش أصلاً - رغم الطاعون والمجاعات والحروب وفساد
الحكام . وما هو ذا الآن يقترب عامه المائة ، أسنانه جميعاً
في فمه ، عيناه صغيرتان باهتان تحسب أنها لا تريان ولكنه
ينظر بهما في حلقة الليل ، جسمه الضئيل منكمش على ذاته ،

عظام وعروق وجلد وعضلات ، وليست فيه قطعة واحدة من الشحم ، يفقر فوق الحمار نشيطاً ، ويمشي في غبش الفجر من بيته إلى الجامع .

مسح جدي بطرف ثوبه الدمع الذي سال على وجهه من شدة الضحك ، وبعد أن أمهلوني ريثما أستقر في مجلسي معهم ، قال جدي : « والله حكايتك حكاية يا ود الرئيس ، . وكان هذا إيداناً لود الرئيس بأن يستمر في القصة التي قطعها دخولي عليهم . » وبعد ، يا حاج أحمد ، أركبت البنت أمامي على الحمار وهي تفلص وتتلوى وبالقوة جردتها من جميع ثيابها حتى أصبحت عارية كما ولدتها أمها ، كانت فرخة عديدة من جوارى بحري بلغت قوها - النهدي يا حاج أحمد كأنه طبنجة والكفل إذا طوقته بذراعيك لا تصل حده . وكانت مدهنة ومدلكة جلدها يلمع في ضوء القمر وعطرها يدوخ العقل . ونزلت بها إلى منطقة رملية وسط الذرة . ولما قمت عليها سمعت حركة في الذرة وصوتاً يقول : من هناك؟ يا حاج أحمد ، جنون الشباب ليس مثله جنون . فكرت بسرعة . وعملت انني عفريت . وأخذت أصرخ بأصوات شيطانية وأنثر الرمل وابرطع ، فذعر الرجل وهرب . إنما النكتة أن عمي عيسى كان قد تقفى أثري منذ خطفت الجارية من بيت العرس حتى وصلنا إلى بقعة الرمل . ولما رأى أنني عملت عفريت وقف يتفرج . وثاني يوم في الصباح الباكر ذهب إلى والدي رحمة الله عليه وقص عليه القصة كلها ، وقال له : ابنك هذا شيطان

رجيم ، وإذا لم نجد له زوجة في هذا النهار أفسد البلد وسبب
لنا فضائح لا أول لها ولا آخر . وفعلوا عقدوا لي في نفس
اليوم على بنت عمي رجب . الله يرحمها ، ماتت في أول
ولادة . وقالت له بنت مجذوب وهي تضحك بصوتها
الرجالي المبحوح من كثرة التدخين : « ومن يومها وأنت
تركب وتنزل كأنك فعل الحميم » .

فقال لها ود الريس : « هل احد يعرف حلاوة هذا
الشيء اكثر منك يا بنت مجذوب ؟ انك دفنت ثمانية ازواج ،
والآن وانت عجوز كركبة لو وجدته لما قلت لا » . وقال
جدي : « سمعنا أن غنج بنت مجذوب شيء لا يتصوره العقل »

واشعلت بنت مجذوب سيجاره وقالت : « عليّ الطلاق
يا حاج احمد ، كنت حين يرقد زوجي بين فخدي أصرخ
صراخاً تجفل منه البهائم المربوطة في مرايحها في الساقية » .
وكان بكري قبل ذلك يضحك ولا يقول شيئاً ، فقال :
« حدثينا يا بنت مجذوب . أي أزواجك كانت احسن ؟ »
فقال بنت مجذوب على الفور : « ود البشير » . فقال بكري :
« ود البشير الكحيان التعبان ؟ كانت العز تاكل عشاء » .

ونفضت بنت مجذوب رماد السيجارة على الارض بحركة
مسرحة بأصابعها وقالت : « عليّ الطلاق ، كان عنده شيء
مثل الوند حين يدخله في احشائي لا اجد أرضاً تسعني . كان
يرفع رجلي بعد صلاة العشاء ، واطل مشبوحة حتى يؤذن

آذان الفجر . وكان حين تأتية الحالة يشخر كالثور حين يذبح
وكان دائماً حين يقوم من فوق يقول : هالله الله يا بنت
مجنوب . فقال لها جدي : « لا عجب انك قتلت في عز
الشباب » . فضحكت بنت مجنوب وقالت : « قتله اجله .
هذا الشيء لا يقتل احداً » .

كانت بنت مجنوب امرأة طويلة لونها فاحم مثل القطيفة
السوداء ، ما يزال فيها الى الآن وهي تقارب السبعين بقايا
جمال . وقد كانت مشهورة في البلد ، يتسابق الرجال والنساء
على السواء لسماع حديثها لما فيه من جرأة وعدم تحرج . وكانت
تدخن السجاير وتشرب الخمر وتحلف بالطلاق كأنها رجل .
ويقال ان امها كانت ابنة احد سلاطين الفور . وقد تزوجت
عدداً من خيرة رجال البلد ، ماتوا كلهم عنها وتركوا لها ثروة
ليست قليلة . وقد انجبت ولداً واحداً وعدداً لا يحصى من
البنات اشتهرن بجمالهن وعدم تخرجهن في الحديث ، مثل امهن .
ويروى ان احدى بنات بنت مجنوب تزوجت رجلاً لم
تكن أمها راضية عنه . وحملها وسافر بها . ولما عاد بعد نحو
من عام أراد أن يقيم وليمة يدعو اليها اقارب زوجته . فقالت
له الزوجة : « ان امي لا تتخرج في كلامها ومن الخير ان
ندعوها وحدها » . وفعلوا ذبحوا وأولموا لها . وبعد ان طعمت
وشربت قالت لابنتها وزوجها يسمع : « يا آمنة . هذا
الرجل لم يقصر في حقك . فمسكنك حسن وملبسك حسن ؛
وقد ملأ يديك ورقبتك ذهباً . ولكن لا يبدو على وجهه انه

يقدر على اشباعك في الفراش . فاذا أردت الشبع الصحيح
فأنا اعرف لك زوجاً اذا جاءك لا يتركك حتى تزهق روحك
ولما سمع الزوج هذا الكلام غضب غضباً شديداً وطلق زوجته
ثلاثاً في الحين .

وقالت بنت مجذوب لود الرئيس : « ما بالك ، لك عامان
وانت مكثف بزوجة واحدة ؟ هل ضعفت همتك ؟ » .

وتبادل ود الرئيس وجدي نظرات لم أفهمها الا فيما بعد ،
وقال : « الوجه وجه شيخ والقلب قلب شاب . هل تعرفين
أرملة او ثيباً تصلح لي ؟ » .

وقال بكري : « النصيحة لله يا ود الرئيس . انت لم تعد
رجل زواج . انك الآن شيخ في السبعين وأحفادك صار لهم
أولاد . الا تستحي ، لك كل سنة عرس ؟ الآن يلزمك الوقار
والاستعداد لملاقاة الله سبحانه وتعالى » .

ضحكت بنت مجذوب وضحك جدي لهذا القول ، وقال
ود الرئيس في غضب مصطنع : « ماذا يفهمك انت في هذه
الامور ؟ انت وحاج احمد كل واحد منكم اكتفى بامرأة
واحدة ولما ماتتا وتركنا كما لم تجدا الجرأة على الزواج .
حاج احمد هذا طول اليوم في صلاة وتسبيح كأن
الجنة خلقت له وحده . وأنت يا بكري مشغول في جمع المال
إلى أن يريحك منه الموت . الله سبحانه حلل الزراج وحلل
الطلاق وقال ما معناه خذوهن باحسان أو فارقوهن باحسان .

وقال في كتابه العزيز : النسوان والبنون زينة الحياة الدنيا .
وقلت لود الرئيس ان القرآن لم يقل « النسوان والبنون »
ولكنه قال « المال والبنون » . فقال : « مهما يكن ، لا
توجد لذة أعظم من لذة النكاح » .

وملئ ود الرئيس شاربیه المقوسين بعناية إلى أعلى ،
طرفاهما كحد الإبرة ، ثم أخذ يمسح بيده اليسرى لحية
الغزيرة البيضاء التي تلبس وجهه من الصدغ إلى الصدغ ،
ويتناثر لونها الأبيض الناصع من سمرة وجهه كلوث الجلد
المدبوغ ، فكأن اللحية شيء صناعي ألصق بالوجه . ويختلط
بياض اللحية دون مشقة ببياض العمة الكبيرة ، مقيماً إطاراً
صارخاً يبرز أهم معالم الوجه : العينين الجليتين الذكيتين ،
والأنف المرهف الوسيم . وود الرئيس يستعمل الكحل متذرعاً
بان الكحل سنة ، لكنني اظن انه يفعل ذلك زهواً . كان في
مجموعه وجهاً جميلاً ، خاصة اذا قارنته بوجه جدي الذي ليس
فيه شيء يميزه ، ووجه بكري وهو كالبطيخة المكرمة .
وواضح أن ود الرئيس يدرك ذلك ، وقد سمعت انه كان في
شبابه آية في الحسن ، وان قلوب الفتيات كانت تحفق بحبه
قبلي وبحري ، أعلى النهر وأسفله . كان كثير الزواج والطلاق
لا يعنيه في المرأة انها امرأة ، يأخذهن حيثما اتفق ، ويحبب
اذا سئل : « الفحل غير عواف » . واذكر من زوجاته
دنقلاوية من الخندق ، وهندوية من الغضارف ، وأثيوبية

وجدها تخدم عند ولده الاكبر في الخرطوم ، وامرأة من نجير .
عاد بها في حجته الرابعة . ولما سئل كيف تزوجها قال انه
اجتمع بها وبزوجها في السفينة بين بور سودان وجدة وتصادق
معهما . ولكن الرجل توفي في مكة يوم الوقوف على عرفات .
وقال له وهو يحتضر : « أوصيك بزواجي خيراً » . ولم يجد
خيراً من زواجها . عاشت معه ثلاثة أعوام ، وهو وقت
طويل بحساب ودريس . وكان فرحاً بها ، وأعظم سروره
انها كانت عاقراً . وكان يحكي للناس خصائص أفعاله معها ،
ويقول : « من لم يتزوج فلاتية لم يعرف الزواج » . وأثناء
حياته معها تزوج بامرأة من الكبابيش ، عاد بها في زيارة له
الى حمرة الشيخ . لكن المراتين لم تطبقا الحياة معاً ، فطلق
الفلاتية ارضاء للكباشية ، ولكن الكباشية ، بعد ذلك بقليل
هجرتة وهربت الى أهلها في حمرة الشيخ .

وضربني ودريس بكوعه في جنبي وقال : « قالوا
نسوان النصارى شيء فوق التصور » . فقلت له : « لأدري » .

فقال : « اي كلام هذا ؟ شاب مثلك في عز الشباب
يعيش سبع سنين في بلاد الهنك والرنك وتقول لا أدري » .

سكت ، فقال ودريس : « قبيلتكم هذه لا خير فيها .
انتم رجال المرأة الواحدة - ليس فيكم غير عمك عبد الكريم
ذلك هو الرجل » .

كنا بالفعل معروفين في البلد بأننا لا نطلق زوجاتنا ولا

نتزوج عليهن ، وكان اهل البلد يتندرون علينا ويقولون اننا نخاف من زوجاتنا . إلا عمي عبد الكريم - كان مطلقاً مزواجاً ، وزانياً أيضاً .

وقالت بنت مجذوب : « حريم النصارى لا يعرفن لهذا الشيء كما تعرف له بنات البلد . نساء غلف ، الحكاية عندهن كشرب الماء . بنت البلد تعمل الدلكة والدخان والريجة وتلبس الفركة القرمصيص . زحين ترقد على البرش الاحمر بعد صلاة العشاء وتفتح فخذيها ، يشعر الرجل كأنه ابو زيد الهلالي . الرجل الماعنده همة يصبح له همة » .

وضحك جدي وضحك بكري وقال ود الرئيس : « دعك من بنات البلد يا بنت مجذوب . النسوان البرانيات ، هؤلاء هن النساء » .

وقالت بنت مجذوب : « عقلك هو البراني » . وقال جدي : « ود الرئيس يحب النسوان الغير مطهرات » .

وقال ود الرئيس : « علي اليمين يا حاج احمد ، لو ذقت نساء الحبش والفلاة كنت رميت مسبحتك . وتركت صلاتك ما بين افخاذهن كأنه الصحن المكفى ، صاغ سليم ، بكامل خيره وشره . عندنا هنا يقطعونه ويتركونه مثل الارض الخلاء » .

وقال بكري : « الختانة من شروط الاسلام » . فقال ود الرئيس : « اي اسلام هذا ؟ اسلامك انت واسلام حاج

احمد ، لانكم لا تعرفون الذي يصلحكم من الذي يضركم . الفلانة
والمصريون وعرب الشام . اليسوا مسلمين مثلنا ؟ لكنهم ناس
يعرفون الاصول . يتركون نساءهم كما خلقهن الله . اما نحن
فنجزهن كما تجز البهيمة » .

وضحك جدي حتى اسقط ثلاث حبات من مسبحته مرة
واحدة دون وعي ، وقال : « المصريات ، مثلك لا يقدر
عليهن » . قال له ود الرئيس : « وما ادراك انت بالمصريات ؟ »
فقال بكري بالنيابة عن جدي : « هل نسيت ان حاج احمد
سافر الى مصر سنة ستة واقام فيها تسعة اشهر ؟ » .
وقال جدي : « مشيت على قدمي ؛ ليس معي غير المسبحة
والابريق » .

فقال ود الرئيس : « وماذا فعلت ؟ عدت كما ذهبت
بالمسبحة والابريق . علي اليمين ، لو كنت محلك لما عدت فارغ
اليدين » .

فقال جدي : « اظنك كنت رجعت ومعك امرأة . هذا
هو كل همك . انا رجعت ومعني المال فاشتريت الأرض وعمرت
الساقية وطهرت اولادي » .

وقال ود الرئيس : « بالله يا حاج احمد ، هل ذقت الشيء
المصري ؟ » .

كانت حبات المسبحة طول الوقت تتفلت بين اصابع جدي
طالعة نازلة كأنها دولا ب الساقية . لكن الحركة توقفت فجأة

ورفع جدي وجهه الى السقف وفتح فمه . ولكن بكري كان
اسبق منه فقال : « انت يا ود الرئيس مجنون . رجل كبير
لكن ما عندك فهم . النسوان نسوان في مصر أو السودان
أو العراق أو وافي ، الواق . السوداء والبيضاء والحمراء كلهن
سواسية » .

ولم يستطع ود الرئيس من شدة دهشته ان يقول شيئا .
ونظر الى بنت مجذوب كأنه يستنجد بها . وقال جدي :
« الحق لله انني كدت اتزوج في مصر . المصريون ثامن طيبون
ويحفظون العشرة . والمرأة المصرية تعرف قيمة الرجل . تعرفت
برجل تقي في بولاق كنا نلتقي دائما في صلاة الفجر في مسجد
ابو العلاء . دخلت بيته وتعرفت على اهله كان ابو بنات
عنده ست بنات كل واحدة تقول للقمر قوم وانا اقعد محلك .
بعد مدة قال لي : يا سوداني انت رجل متدين وتحفظ العشرة
خليني ازوجك بنتا من بناتي . الحق لله يا ود الرئيس نفسي
مالت الى البنت الكبيرة . لكن بعدها بقليل جاني تلغراف
بوفاة المرحومة امي فسافرت في الساعة والحين » . وقال
بكري : « رحمة الله عليها . كانت امرأة فاضلة » . وتنهد
ود الرئيس وقال : « يا خسارة . الدنيا هكذا . تعطي الذي
لا يريد ان يأخذ . علي اليمين لو كنت في محلك كنت عملت
عمایل . كنت تزوجت وقعدت هناك وذقت حلاوة الحياة مع
بنات الريف . ماذا أرجعك لهذا البلد الخلاء المقطوع ؟ » .

وقال بكري : « الفزال قالت بلدي شام » .

وكانت بنت مجذوب قد أوقدت سيجارة اخرى جذبت منها الدخان بسخاء وعكرت به سماء الغرفة ، فقالت لودريس : « انت لم تعدم حلاوة الحياة حتى في هذا البلد الحلاء المقطوع . ها أنت سمين بدين لا تمجز ولا تكبر مع انك زدت على السبعين » .

فقال ودريس : « علي اليمين ، سبعين سنة فقط لا تزيد يوماً واحداً . انما انت شرط اكبر من حاج احمد » .

فقال له جدي : « خاف الله يا ودريس . بنت مجذوب لم تكن ولدت حين تزوجت أنا . وهي اصغر منك بسنتين أو ثلاث » .

فقال ودريس : « على اي حال ، انا في يومنا هذا انشط واحد فيكم . وعلي اليمين ، بين فخذني المرأة انا انشط من حفيدك هذا » .

فقالت بنت مجذوب : « انت تفلح في الكلام . ولا بد انك تجري وراء النساء لان بضاعتك مثل عقلة الاصبغ » .
فقال ودريس : « لو كنت تزوجتني يا بنت مجذوب لوجدت شيئاً مثل مدافع الانكليز » . فقالت بنت مجذوب : « المدافع سكنت وقت مات ود البشير . انت يا ودريس رجل مخرف ، عقلك كله في رأس ذكرك ، ورأس ذكرك صغير مثل عقلك » .

وارتفع ضحكهم جميعاً ، حتى بكري الذي كان من قبل
يضحك يهدوء . وتوقف جدي عن الطقطقة بمسبخته تماماً ،
وضحك ضحكته النحيلة الخبيثة المنطلقة . وضحكت بنت
مجنذوب بصوتها الرجالي المبجوح . وضحك ود الريس ضحكاً
اقرب الى الشخير منه الى الضحك . ومسحوا الدموع من
اعينهم ، - وقال جدي : « أستغفر الله العظيم وأتوب اليه » .
وقالت بنت مجنذوب : « استغفر الله . والله ضحكوتنا يا جماعة
اللهم اجمعنا ثانية في ساعة خير » .

وقال بكري : « استغفر الله . اللهم اغفر لنا وارزقنا
حسن الختام » .

وقال ود الريس : « استغفر الله العظيم . ايام نقضها على
وجه الارض وبعدها ربنا يفعل فينا ما يشاء » .

وهبت بنت مجنذوب واقفة دفعة واحدة ، كما يهب رجل
في الثلاثين ، وانتصبت بطولها ، معتدلة القامة ، لا انحناء في
الظهر ولا تقوس في الكتفين . وقام بكري متعاملاً على نفسه
وقام ود الريس يتكئ قليلاً على عصاه . وقام جدي من على
فروة الصلاة وجلس على سريره ذي الأرجل القصيرة . ونظرت
اليهم ، ثلاثة شيوخ وامرأة شيوخة ، ضحكوا برهة على حافة
القبر . وفي غد يرحلون . غداً يصير الحفيد أباً والأب جد ،
وتستمر القافلة .

ثم خرجوا . وقال لي ود الريس وهو يذهب : « باكر
يا افندي تتغدى معنا » .

وتمدد جدي على سريره ، ثم ضحك ، وحده هذه المرة ،
كأنما يؤكد احساسه بالعزلة ، بعد ان ذهب الناس الذين
يضحكونه ويضحكهم . وبعد فترة قال : « هل تدري لماذا
دعاك ود الرئيس للغداء ؟ » فقلت له اننا اصدقاء وقد دعاني
من قبل . فقال جدي : « انه يريد منك خدمة » .
فقلت : « ماذا ينبغي ؟ » .

قال : « ينبغي الزواج » .
فتضاحكت وقلت لجدي : « ما شأني بزواج ود الرئيس ؟ »
فقال جدي : « انت وكيل العروس » .

لذت بالصمت . فقال جدي وهو يظن انني لم افهم :
« ود الرئيس يريد ان يتزوج أرملة مصطفى سعيد » .

مرة اخرى لذت بالصمت ، فقال جدي : « ود الرئيس لا
يزال شاباً ، وهو صاحب مال ، وعلى اي حال المرأة يلزم لها
الستر . ثلاثة اعوام مرت على وفاة زوجها . الا تريد الزواج
أبدأ ؟ » .

قلت له انني لست مسؤولاً عنها . ابوها موجود واخوتها ،
فلماذا لا يطلبها ود الرئيس منهم ؟ فقال جدي : « البلد كلها
تعرف ان مصطفى سعيد جعلك وصياً على زوجته وولديه » .
قلت له انني وصي على الولدين ولكن المرأة حرة التصرف
وأولياؤهم موجودون . فقال جدي : « انها تثق بكلامك .
لو حدثتها فقد ترضى » .

احسست بفيظ حقيقي ادهشي ، اذ ان هذه الاشياء
مألوفة في البلد . وقلت لجدي : « انها رفضت رجالاً اصغر
منه سناً ، انه يكبرها بأربعين عاماً » . ولكن جدي اصر
على ان ود الرئيس شاب وانه ميسور الحال وانه متأكد أن
أباها لن يمانع ولكن المرأة نفسها قد ترفض ولذلك ارادوا ان
يجعلوني واسطة خير .

حبس الغضب لساني فلذت بالصمت . وقفزت الى ذهني
صورتان فاضحتان في آن واحد . ولشدة عجيبي ، اتحدث
الصورتان في ذهني ، وتحيلت حسنة بنت محمود ، أرملة مصطفى
سعيد ، هي المرأة نفسها في الحالتين — فخذان بيضاوان
مفتوحتان في لندن ، وامرأة تثن تحت ود الرئيس الكهل ،
قبيل طلوع الفجر في قرية مغمورة الذكر عند منحني النيل .
ان كان ذلك شراً فهذا ايضاً شر ، وان كان هذا ، مثل
الموت والولادة وفيضان النيل . وحصاد القمح ، جزءاً من
نظام الكون ، فقد كان ذلك أيضاً كذلك . وأتصور حسنة
بنت محمود ، أرملة مصطفى سعيد ، في الثلاثين من العمر ،
تبكي تحت ود الرئيس الذي بلغ السبعين ، ويتحول بكاؤها الى
قصص من قصص ود الرئيس المشهورة عن نسائه الكثيرات ، يتندر
بها رجال البلد ، فيزداد الفيظ في صدري ضراوة . ولم استطع
البقاء فخرجت ، وسمعت جدي ينادي ورائي فلم التفت .
وفي بيتنا سأاني أبي عن سبب غضي فحكيت له القصة .
ضحك وقال : « هل هذا شيء يثير الغضب ؟ » .

قريباً من الساعة الرابعة بعد الظهر ذهبت إلى بيت مصطفى سعيد ، ودخلت من باب الحوش الكبير ، ونظرت برهة إلى اليسار إلى الغرفة المستطيلة من الطوب الأحمر . ساكنة ، لا كالمقبرة ، ولكن كسفينة ألقت مراسيها في عرض البحر . إنما الوقت لم يحن بعد . وأجلستني على كرسي في المصطبة أمام الديوان ، المكان عينه ، وجاءت لي بكوب من عصير الليمون . وجاء الولدان وسلما علي ، الأكبر محمود اسم أبيها ، والأصغر سعيد اسم أبيه . طفلان عاديان ، أحدهما في الثامنة وثانيهما في السابعة ، يركبان حمراً كل صباح إلى المدرسة على بعد ستة أميال . إنها أمانة في عنقي ، ومن الأسباب التي تحضرني هنا كل عام أن أتفقد أحواهما . سنختنها هذه المرة ، وسنحضر المغنين والمداحين ونقيم احتفالاً يكون ذكرى مضيئة من ذكريات طفولتها . قال : « جنبها مشقة السفر » . انني لن أفعل شيئاً من هذا القبيل ، إذا أراد ، حين يكبران ، أن يسافرا فليسافرا . كل أحد يبدأ

من أول الطريق ، والعالم في طفولة لا تنتهي .

انصرف الولدان وظلت هي واقفة أمامي . قامة ممشوقة
تقرب من الطول ، ليست بدينة ولكنها ريانة ممتلئة كعود
قصب السكر ، لا تضع حناء في قدميها ولا في يديها ، ولكن
عطراً خفيفاً يفوح منها . شفتاها لمساوان طبيعة ، وأسنانها
قوية بيضاء منتظمة . وجهها رسيم ، والعينان السوداوان
الواسعتان يختلط فيهما الحزن والحياة . حين سلمت عليها
أحسست بيدها ناعمة دافئة في يدي . امرأة نبيلة الوقفة ،
أجنبية الحسن ، أم انني أتخيل شيئاً ليس موجوداً حقيقة ؟
امرأة أحس حين ألقاها بالحرج والخطر ، فأهرب منها أسرع
ما أستطيع . هذا هو القربان الذي يريد ود الرئيس أن
يذبجه على حافة القبر ، ويرشي به الموت فيهمله عاماً أو عامين .

وظلت واقفة رغم الحاحي ، ولم تجلس إلا حين قلت لها :
« إذا لم تجلسي فإذهب » . بدأت الحديث بطيئاً متعسراً ،
ومضى كذلك والشمس تنحدر نحو المغيب ، والهواء يبرد
قليلاً قليلاً ، وقليلًا قليلاً أيضاً أخذت عقدة لساني تنحل
وعقدة لسانها . وقلت لها شيئاً أضحكها وارتجف قلبي من
عذوبة ضحكها . وانتشر دم المغيب فجأة في الأفق الغربي
كدماء ملايين ماتوا في حرب عارمة نشبت بين الأرض
والسما . وانتهت الحرب فجأة بالهزيمة ، ونزل ظلام كامل
مستتب احتل الكون بأقطابه الأربعة ، وأضاع مني الحزن

والحياء الذي في عينيها . لم يبق إلا الصوت الذي دفأته الالفة
والعطر الخفيف كينبوع قد يحف في أي لحظة . وفجأة قلت
لها : « هل أحببت مصطفى سعيد ؟ »

لم تجب . وظللت برهة أنتظر ولكنها لم تجب . ثم
أدركت أن الظلام والعطر كادا يخرجاني عن طوري وان
ذلك سؤال لا يسأل في ذلك الزمان وذلك المكان . ولكن
الظلام ما لبث أن ثغر ثغرة نفذ منها صوتها إلى أذني :
« كان أباً لأولادي » .

إذا صدق ظني ، فإن الصوت لم يكن حزيناً ، بل كانت
فيه مناغات . وتركت الصمت يوسوس لها فلملها تقول شيئاً .
نعم ، ذلك هو :

« كان زوجاً كريماً وأباً كريماً . طول حياته لم يقصر
معنا » .

فقلت لها وأنا أميل في الظلام تجاهها : « هل كنت تعرفين
من أين هو ؟ »

قالت : « من الخرطوم » .

قلت : « وماذا يعمل في الخرطوم ؟ »

قالت : « في التجارة » .

قلت : « ولماذا جاء إلى هنا ؟ »

قالت : « الله أعلم » .

وكدت أياس . ثم هبت نسمة نشطة في اتجاهي حاملة

شحنة من العطر ، فوق ما كنت أطمع فيه . واستنشقت
العطر وأحسست بياسي يزداد حدة . وفجأة حدثت فجوة
كبيرة في الظلام ، نفذ منها صوت حزين هذه المرة ، حزناً
أعمق من غور النهر . قالت : « أظنه كان يخفي شيئاً »
لاحقتها بالسؤال : « لماذا ؟ »

قالت : « كان يقضي وقتاً طويلاً بالليل في تلك الغرفة »
وازدادت ملاحظة : « ماذا في تلك الغرفة ؟ »

قالت : « لا أدري . اني لم أدخلها قط . المفتاح عندك .
لماذا لا تتحقق بنفسك ؟ »

نعم ، هبنا قمنا أنا وهي الآن ، في هذه اللحظة ، وأوقدنا
المصباح ، ودخلنا ، هل نجده معلقاً من رقبتة في السقف ،
أم نجده جالساً القرفصاء على الأرض ؟

سألها مرة أخرى : « لماذا تظنين أنه كان يخفي شيئاً ؟ »
صوتها الآن ليس حزيناً وليس فيه مناغاة ، ولكنه
مشرشر الأطراف كورقة الذرة :

« أحياناً بالليل في النوم كان يقول كلاماً .. بالרטانة ،
ولاحقتها بالسؤال : « أي رطانة ؟ »

فقالت : « لا أدري . مثل الكلام الافرنجي »

وظللت ماثلاً وجهتها في الظلام ، مترقباً ، منتظراً .

« كان يردد في نومه كلمات .. مثل جينا ، جيني ..

لا أدري . »

في هذا المكان نفسه ، في وقت مثل هذا ، في ظلام مثل هذا ، كان صوته يطفو كأحوات ممتدة طافية على سطح البحر . « ظلت أطاردها ثلاثة أعوام . كل يوم يشتد وتر وتر القوس . قوافلي ظمأى والسراب يتوهج قدامي في صحراء الشوق . في تلك الليلة حين همست جين في أذني : « تعال معي . تعال معي » ، كانت حياتي قد اكتملت ولم يكن يوجد سبب للبقاء .. » وتناهدت إلى أذني صرخة طفل من مكان ما في الحلي ، وقالت حسنه : « كأنه كان يحس بدنو أجله . قبل اليوم ، يوم .. قبل موته بأسبوع رتب كل شؤونه . كانت له أطراف جمعها ، وديون دفعها . قبل موته بيوم دعاني وحدثني بما عنده . أوصاني كثيراً على الولدين . أعطاني الرسالة المختومة بالشمع . قال لي . أعطها له إذا حدث شيء . وقال لي إذا حدث شيء فأنت تكون وصياً على الأولاد . قال لي : استشيريه في كل ما تفعلين . بكيت وقلت له : إن شاء الله ما في عوج . فقال : فقط من باب الاحتياط والدنيا غير معروفة . في ذلك اليوم توسلت إليه ألا ينزل إلى الحقل والدنيا فيضان وغرق . كنت خائفة . لكنه قال لا داعي للخوف وإنه يجيد السباحة . كنت متوجسة طول اليوم وزاد خوفي حين تأخر عن ميعاده . وانتظرنا ، ثم كان ما كان »

وأحسست بها تبكي في صمت ، ثم ارتفع بكاءها ، وتحول إلى شهيق حاد ، ارتعش له الظلام القائم بيني وبينها . ضاع

العطر والصمت، ولم يعد في الكون إلا نحيب امرأة تشكلت زوجاً
 لا تعرفه، رجلاً أفرد أنسرعه وضرب في عرض البحر وراء
 سراب أجنبي. ورد الرئيس الشيخ في داره يحلم بليالي الفنج
 تحت فرجة القمر مصيص. وأنا ماذا أفعل الآن وسط هذه
 الفوضى؟ هل أقوم إليها وأضربها إلى صدري وأجفف دموعها
 بنديلي وأعيد الطمانينة إلى قلبها بكلماتي؟ وقمت نصف قومة
 مستنداً إلى ذراعي، ولكنني أحسست بالخطر، وتذكرت
 شيئاً، فلبت واقفاً هكذا زمناً في حالة بين الاقدام
 والاحجام. وبغمة هبط علي عناء ثقيل تهالكت تحت وطأته
 على المقعد. الظلام كثيف وعميق وأساسي وليست حالة
 ينعدم فيها الضوء - الظلام الآن ثابت كأن الضوء لم يوجد
 أصلاً، ونجوم السماء مجرد فتوق في ثوب قديم مهلهل. العطر
 أضغاث أحلام، صوت لا يسمع مثل أصوات أرجل النمل في
 تل الرمل. ونبع من جوف الظلام صوت لم يكن صوتها،
 صوت ليس غاضباً ولا حزيناً ولا خائفاً، صوت مجرد،
 يقول: « كان المحامون يتصارعون على جثتي. لم أكن أنا
 المهم بل كانت القضية هي المهمة، بروفيسور ماكسول فستركين
 من المؤسسين لحركة التسلح الخلقي في أكسفورد، وماسوني،
 وعضو في اللجنة العليا مؤتمراً الجمعيات التبشيرية البروتستانتية
 في أفريقيا. لم يكن يخفي كراهيته لي. أيام تتلذذي عليه في
 أكسفورد كان يقول لي في تبرم واضح: « أنت يا مستر سعيد
 خير مثال على أن مهمتنا الحضارية في أفريقيا عديمة الجدوى،

فأنت بعد كل الجهود التي بذلناها في تثقيفك كأنك تحرم من الغاية لأول مرة . ومع ذلك فما هو ذا يستعمل كل مهارته ليخلصني من حبل المشنقة . وسير آرثر هغنز ، تزوج وطلق مرتين ، مغامراته الغرامية معروفة ، مشهور بصلاته مع اليسار والأوساط البوهيمية . قضيت عبد الميلاد سنة ١٩٢٥ في بيته في سافرون ولدن . كان يقول لي : « أنت وغد ولكنني لا أكره الأوغاد ، فأنا أيضاً وغد » . لكنه في هذه المحكمة سيستعمل كل مهارته ليضع حبل المشنقة حول عنقي . والحلفون أيضاً ، أشتات من الناس ، منهم العامل والطبيب والمرارع والمعلم والتاجر والحانوتي ، لا تجمع صلة بيني وبينهم ، لو انني طلبت استئجار غرفة في بيت أحدهم فأغلب الظن أنه سيرفض ، وإذا جاءت ابنة أحدهم تقول له انني سأتزوج هذا الرجل الافريقي ، فيحس حتماً بأن العالم ينهار تحت رجله . ولكن كل واحد منهم في هذه المحكمة سيسمو على نفسه لأول مرة في حياته . وأنا أحس تجاههم بنوع من التفوق ، فالاحتفال مقام أصلاً بسببي ، وأنا فوق كل شيء مستعمر ، انني الدخيل الذي يجب أن يبت في أمره . حين جرى لكلمشتر بمحمود ود أحمد وهو يرسف في الاغلال بعد أن هزمه في موقعة انبرا ، قال له : « لماذا جئت بندي تخرب وتنهب ؟ » الدخيل هو الذي قال ذلك لصاحب الأرض ، وصاحب الأرض طأطأ رأسه ولم يقل شيئاً . فليكن أيضاً ذلك شأني معهم . انني أسمع في هذه المحكمة صليل سيوف الرومان في قرطاجة ،

وقعقة سنابك خيل اللبى وهى تطأ أرض القدس . البواخر
مخرت عرض النيل أول مرة تحمل المدافع لا الخبز ، وسكك
الحديد انشئت أصلاً لنقل الجنود . وقد أنشأوا المدارس
ليعلمونا كيف نقول « نعم » بلغتهم . انهم جلبوا إلينا جرثومة
العنف الأوربي الأكبر الذي لم يشهد العالم مثيله من قبل في
السوم وفي فردان ، جرثومة مرض فتاك أصابهم منذ أكثر
من ألف عام . نعم يا سادتي ، انني جئتكم غازياً في عقر
داركم . قطرة من السم الذي حقنتم به سرايين التاريخ . أنا
لست عطيل . عطيل كان أكذوبة .

بينما كنت أفكر في قول مصطفى سعيد وهو يجلس في
هذا المكان عينه ، في ليلة مثل هذه ، كنت أسمع نشيجها
بالبكاء كأنه يصلني من بعد ، يختلط في خيالي بأصوات مبعثرة
لا بد انني سمعتها في أوقات متباعدة ، ولكنها تداخلت في ذهني
كأجراس كنيسة - صراخ طفل في مكان ما في الحي ،
وصياح ديك ، ونهيق حمار ، وأصوات عرس تأتي من الضفة
الأخرى للنهر . لكنني الآن أسمع صوتاً واحداً فقط ، صوت
بكائها المعض . ولم أفعل شيئاً . جلست حيث أنا بلا حراك
وتركتها تبكي وحدها الليل حق سكنت . وكان لا بد أن
أقول شيئاً ، فقلت : « التعلق بالماضي لا ينفع أحداً . عندك
الولدان ، وأنت مازلت شابة في مستقبل العمر . فكري في
المستقبل . ومن يدري ، لعلك تقبلين واحداً من الخطاب
العديد الذين يطلبونك »

أجابت فوراً ، بحزم و الأمر الذي أدهشني : « بعد مصطفى سعيد لا أدخل على رجل » .

ولم أكن أنوي أن أقول لها ذلك ، ولكنني قلت : « ود الرئيس يريد زواجك ، وأبوك وأهلك لا يمانعون . كلّفني أن أتوسط له عندك » .

وصمتت فترة طويلة حتى ظننت انها لن تقول شيئاً ، وفكرت أن أقوم وأذهب . وأخيراً أحسست بصوتها في الظلام كأنه نصل : « إذا أجبروني على الزواج ، فاني سأقتله وأقتل نفسي » .

وفكرت في عدة أشياء أقولها ، ولكنني ما لبثت ان سمعت المؤذن ينادي : « الله أكبر . الله أكبر » لصلاة العشاء ، فوقفت هي أيضاً ، وخرجت دون أن أقول شيئاً .

وأنا أشرب قهوة الصباح جاءني ود الرئيس . كنت أنوي الذهاب إلى داره ولكنه لم يمهّلني . قال انه جاء ليذكرني بدعوة البارحة ، ولكنني كنت أعلم أنه لم يستطع الصبر فجاء ليعرف مني نتيجة وساطتي . قلت له حالما جلس : « لا فائدة . انها لا تريد الزواج اطلاقاً . لو كنت منك لتركتم هذا الموضوع البتة » .

لم أكن أحسب أن الخبر سيقع عليه كما وقع فعلاً . لكن ود الرئيس الذي يبدل النساء كما يبدل الحخير ، يجلس أمامي

لآن . وجهه مؤلبد وجفناه يرتعشان ، وقد عض شفته السفلى حتى كاد يقطعها . أخذ يتململ في مقعده وينقر الأرض في عصبية بالغة بعضاه . خلع حذاءه من رجله اليمنى ولبسه عدة مرات ، وكان يتأهب للقيام ثم يجلس ، ويفتح فيه كأنه يريد أن يتكلم ثم يسكت . يا للعجب هل معقول أن ود الرئيس عاشق ؟ وقلت له : « لن نعدم امرأة غيرها تتزوجها »

قال وعيناه لذكيتان لم تعودا ذكيتين ، أصبحتا كرتين من الزجاج قد استقرنا على حالة واحدة جامدة : « لن أتزوج غيرها . ستقبلني وأنفها صاغر . هل تظن انها ملكة أو أميرة ؟ الأرامل في هذا البلد أكثر من جوع البطن . تحمد الله انها وجدت زوجاً مثلي » .

قلت له : « إن كانت امرأة كسائر النساء فلماذا الإصرار ؟ أنت تعلم انها رفضت رجالاً غيرك ، بعضهم أصغر منك سناً . إذا أرادت أن تتفرغ لتربية ولديها فلماذا لا تتركونها وشأنهن ؟ »
بغثة تدفق من ود الرئيس غضب جنوني لم أكن أظن أنه من طبيعته . ثار ثورة عارمة ، وقال شيئاً أدهشني حقبة :
« أسأل نفسك لماذا ترفض بنت محمود الزواج . انت السبب . لاشك أن بيدك وبينها شيئاً . ما دخلك أنت ؟ أنت لست أباهـا ولا أخاها ولا ولي أمرها . انها ستتزوجني رغم انفك وانفها . أبوها قبل واخواتها قبلوا . الكلام الفارغ الذي تتعلمونه في

المدارس لا يسير عندنا . هذا البلد فيه الرجال قوامون
على النساء . »

ولا أعلم ماذا كان يحدث لولا أن أبي دخل في تلك اللحظة ،
وقمت فوراً وخرجت .

ورحت إلى محجوب في حقله . كان محجوب في مثل سني ،
قضينا طفولتنا معاً ، وكنا نجلس على درجين متلاصقين في
المدرسة الأولية . وكان أذكى مني . ولما انتهينا من مرحلة
التعليم الأولى . قال محجوب : هذا القدر من التعليم يكفي ،
القراءة والكتابة والحساب . نحن ناس مزارعون مثل آبائنا
وأجدادنا . كل ما يلزم المزارع من التعليم ، ما يمكنه من
كتابة الخطابات وقراءة الجرائد ومعرفة فروض الصلاة . وإذا
كانت لنا مشكلة نعرف نتفاهم مع الحكام . مضيت أنا في
ذلك السبيل ، وتحول محجوب إلى طاقة فعالة في البلد ، فهو
اليوم رئيس للجنة المشروع الزراعي ، والجمعية التعاونية ،
وهو عضو في لجنة الشفخانة التي كادت تتم ، وهو على رأس
كل وفد يقوم إلى مركز المديرية لرفع الظلامات . وحين جاء
الاستقلال أصبح محجوب من زعماء الحزب الوطني الاشتراكي
الديمقراطي في البلد . كنا أحياناً نتذاكر أيام طفولتنا في
القرية فيقول لي : « لكن انظر أين أنت الآن وأين أنا . أنت
صرت موظفاً كبيراً في الحكومة وأنا مزارع في هذه البلدة
المقطوعة » . وأقول له بأعجاب حقيقي : « أنت الذي نجحت

لا أنا ، لأنك تؤثر على الحياة الحقيقية في القطر . أما نحن
فموظفون لا نقدم ولا نؤخر . الناس امثالك هم الوريثاء
الشرعيون للسلطة . أنتم عصب الحياة . أنتم ملح الأرض .
وبضحك محجوب ويقول : « إذا كنا نحن ملح الأرض فهي
أرض ماسخة » .

ضحك أيضاً بعد أن سمع قصتي مع ود الرئيس وقال :
ود الرئيس رجل خرف لا يعني مايقول » .

قلت له : « انت تعلم أن علاقتي بها علاقة يملئها الواجب
لا أكثر ولا أقل ؟ »

فقال محجوب : « لا تلتفت لتخريف ود الرئيس . سمعتك
في البلد لا تشوبها شائبة . اهل البلد كلهم يلهجون بحمدك
لأنك تقوم بالواجب نحو اولاد مصطفى سعيد ، رحمه الله ،
خير قيام . لقد كان على أي حال رجلاً غريباً لا تربطك به
رابطة » . وسكت قليلاً ثم قال : « إنما إذا كان ابو المرأة
واخوانها راضين فلا حيلة لأحد » .

قلت له : « ولكن إذا كانت لا تريد الزواج .. » وقاطعني
قائلاً : « انت تعرف نظام الحياة هنا . المرأة للرجل ، والرجل
رجل حتى لو بلغ ارذل العمر » .

قلت له : « ولكن إذا كانت لا تريد الزواج .. » وقاطعني
قائلاً : « في هذا العصر »

وقال محجوب : « الدنيا لم تتغير بالقدر الذي تظنه .
تغيرت أشياء . طلبات الماء بدل السواقي ، محاريث من حديد
بدل محاريث الخشب . أصبحنا نرسل بناتنا للمدارس .
راديوها . أوتومبيلات . تعلمنا شرب الويسكي والبيرة بدل
العرق والمريسة . لكن كل شيء كما كان » . وضحك محجوب
وهو يقول : « الدنيا تتغير حقيقة حين يصير أمثالي وزراء في
الحكومة » . و اضاف وهو ما يزال يضحك : « وهذا طبعاً
من رابع المستحيلات » .

قلت لمحجوب ، وقد سرى عني : « هل تظن أن ود
الريس وقع في غرام حسنه بنت محمود ؟ »

قال محجوب : « لا يستبعد . ود الريس رجل صباية .
وهو منذ سنتين يلهج بذكرها . وقد طلبها من قبل وأبوها
قبل ولكنها رفضت . وانتظروا لعلها تقبل مع مرور الزمن »
قلت لمحجوب : « لكن لماذا هذا الغرام الفجائي ؟ ود
الريس يعرف حسنه بنت محمود منذ كانت طفلة . هل تذكرها
وهي طفلة شرسة تتسلق الشجر وتصارع الأولاد؟ كانت وهي
فتاة تسبح معنا عارية في النهر . ماذا جد الآن ؟ »

وقال محجوب : « ود الريس كمؤلاء الناس المفرمين باقتناء
الحمير ، الواحد منهم لا تعجبه الحمارة إلا إذا رأى رجلاً آخر
راكباً عليها . يراها حينئذ جميلة ويسمى جاهداً لشرائها حتى

ولو دفع فيها أكثر مما تستحق ، . وصمت مدة يفكر ثم قال : « ولكن الحقيقة ان بنت محمود قد تغيرت بعد زواجها من مصطفى سعيد . كل النسوان يتغيرن بعد الزواج لكنها هي خصوصاً تغيرت تغيراً لا يوصف . كأنها شخص آخر . حق نحن أندادها الذين كنا نلعب معها في الحي ، ننظر اليها اليوم فنراها شيئاً جديداً . هل تعرف ؟ كنساء المدن »

وسألت بحجوب عن مصطفى سعيد فقال : « رحمه الله . كان يحترمني وكنت أحترمه . لم تكن الصلة بيننا وثيقة أول الأمر . ولكن عملنا معاً في لجنة المشروع قرب بيننا . موته كان خسارة لا تعوض . هل تعلم ، لقد ساعدنا مساعدة قيمة في تنظيم المشروع . كان يتولى الحسابات . خبرته في التجارة أفادتنا كثيراً . وهو الذي أشار علينا باستغلال أرباح المشروع في إقامة طاحونة للدقيق . لقد وفرت علينا أتعاباً كثيرة ، وأصبح الناس اليوم يحيثونها من أطراف البلد . وهو الذي أشار علينا أيضاً بفتح دكان تعاوني . الأسعار الآن عندنا لا تزيد عن الأسعار في الخرطوم . زمان ، كما تعلم ، كانت البضائع تأتي مرة أو مرتين في الشهر بالباخرة . كان التجار يخزنونها حتى تنقطع كلية من السوق ، ثم يبيعونها بأضعاف مضاعفة . المشروع يملك اليوم عشرة لواري تجلب لنا البضائع كل يوم والآخر مباشرة من الخرطوم وأم درمان . ورجوته أكثر من مرة أن يتولى الرئاسة ولكنه كان يرفض

ويقول انني أجدر منه . العمدة والتجار كانوا يكرهونه كراهية شديدة لأنه فتح عيون أهل البلد وأفسد عليهم أمرهم بعد موته قامت إشاعات بأنهم دبّروا قتله . مجرد كلام . لقد مات غرقاً . عشرات الرجال ماتوا غرقاً ذلك العام . كان عقلية واسعة . ذلك هو الرجل الذي كان يستحق أن يكون وزيراً في الحكومة لو كان يوجد عدل في الدنيا .

فقلت لمحبوب : « السياسة أفسدتك . أصبحت لا تفكر إلا في السلطة . دعك من الوزارات والحكومة وحدثني عنه كناسان . أي نوع من الناس كان هو ؟ »

وظهرت الدهشة على وجهه وقال : « ماذا تقصد أي نوع من الناس ؟ إنه كان كما ذكرت لك » .

ولم أستطع أن أجد الكلمات المناسبة لأوضح لمحبوب قصدي . وقال هو : « مهما يكن ... ايش السبب في اهتمامك بمصطفى سعيد ؟ لقد سألتني عنه كذا مرة من قبل ؟ » واستطرد محبب قبل أن أرد على كلامه : « تعرف ؟ لا أفهم لماذا جعلك وصياً على ولديه . طبعاً أنت تستحق شرف الأمانة وقد قمت بها خير قيام . لكنك كنت أقلنا معرفة به . نحن معه هنا في البلد ، وأنت كنت تراه من العام إلى العام . كنت أتوقع أن يجعلني أو يجعل جدك وصياً . جدك كان صديقه الحميم . كان يحب الاستماع إلى حديثه . كان يقول

لي : تعرف يا محجوب ؟ حاج أحمد رجل فريد من نوعه .
وكنت أقول له : حاج أحمد رجل مخرف . فيزعل جد
ويقول : « لا ، لا تقل هذا . حاج أحمد جزء من التاريخ » .

قلت لمحجوب : « أنا على أي حال وصي إسمياً . الوصي
الحقيقي هو أنت . ولدان هنا معك . وأنا بعيد في الخرطوم »

فقال محجوب : « انها ولدان ذكيان مؤدبان . فيها
مخايل أبيهما . سيرهما في الدراسة أحسن ما يكون »

فقلت له : « ماذا يحدث لهما إذا تم موضوع الزواج
المضحك الذي يريده ود الرئيس ؟ »

فقال محجوب : « هون عليك . حتما ود الرئيس سينشغل
بامرأة أخرى . وعلى أسوأ الفروض تتزوجه . لا أظنه يemis
أكثر من عام أو عامين . ويكون لها سهم في ارضه وزرعه
الكثير »

ثم ، مثل ضربة مفاجئة تنزل على أم الرأس ، نزل علي
قول محجوب : « لماذا لا تتزوجها انت ؟ » خفق قلبي بين
جنبي خفقانا كاد يفلت زمامه من يدي . ولم أجد الكلمات إلا
بعد مدة . قلت لمحجوب وصوتي يرتجف : « لا شك انك
تمزح »

فقال : « جد . لماذا لا تتزوجها ؟ أنا متأكد انها

مستقبل . انت وصي على الولدين ، وبالأحرى أن تتم الموضوع
وتصبح أبا »

وأحسست بعطرها ليلة أمس ، وتذكرت الأفكار التي
نبئت في رأسي بشأنها في الظلام . وسمعت محبوب يضحك
ويقول « لا تقل لي انك زوج وأب . الرجال يتزوجون على
زوجاتهم كل يوم . لن تكون أولهم ولا آخرهم »

وقلت لمحبوب ، وقد استعدت سيطرتي على نفسي ، وأنا
أضحك ايضاً : « انت مجنون حقاً »

وتركته وذهبت ، وان كنت قد ايقنت من حقيقة ستأخذ
كثيراً من راحة بالي فيما بعد . انني ، بشكل أو بآخر ، أحب
حسنة بنت محمود ، ارملة مصطفى سعيد . أنا ، مثله ومثل
ود الرئيس وملايين آخرين ، لست معصوماً من جرثومة
العدوى التي يتنذى بها جسم الكون .

احتفلنا بختان الولدين وعدت للخرطوم . تركت زوجتي وابنتي في البلد ، وسافرت في الطريق الصحراوي في سيارة من سيارات المشروع التي ذكرها بحجوب . كنت أسافر عادة بالباخرة إلى ميناء كريمة النهري ، ومن هناك آخذ القطار ماراً بأبي حمد وأتبرا إلى الخرطوم . لكنني هذه المرة كنت في عجلة من أمري دون سبب واضح ، ففضلت اختصار الطريق . وقامت السيارة في أول الصباح ، وسارت مرفقاً حذاء النيل نحو ساعتين ، ثم انجحت جنوباً في زاوية مستقيمة وضربت في الصحراء . لا يوجد مأوى من الشمس التي تصعد في السماء بخطوات بطيئة وتصب أشعتها على الأرض كأن بينها وبين أهل الأرض ناراً قديماً . لا مأوى سوى الظل الساخن في جوف السيارة ، وهو ليس ظلاً . طريق ممل يصعد ويهبط ، لا شيء يغري العين . شجيرات مبعثرة في الصحراء ، كلها أشواك ، ليست لها أوراق ، أشجار بائسة ليست حية ولا ميتة . تسير السيارة ساعات دون أن يعترض

طريقها انسان أو حيوان . ثم تمر بقطيع من الجمال هي
الأخرى عجفاء ضامرة . لا توجد سحابة واحدة تبشر بالأمل
في هذه السماء الحارة ، كأنها غطاء الجحيم . اليوم هنا شيء
لا قيمة له ، مجرد عذاب يتعذبه الكائن الحي في انتظار الليل .
الليل هو الخلاص . وفي حالة تقرب من الحمى طافت برأسي
نتف من أفكار ، كلمات من جمل ، وصور لوجوه واصوات
تجيء كلها يابسة كالأعاصير الصغيرة التي تهب في الحقول البور .
فيم العجلة ؟ سألتني : « فيم العجلة ؟ » قالت : « ولماذا
تمكث اسبوعاً آخر ؟ » قالت .. الحمارة السوداء ، اعرابي
غش عمك وباعه الحمارة السوداء . وقال أبي : « هل هذا
شيء يثير الغضب ؟ » عقل الإنسان ليس محفوظاً في ثلاثة .
انها هذه الشمس التي لا تطاق . تذوب المخ تشل التفكير .
ومصطفى سعيد ، وجهه ينبع واضحاً في خيالي كما رأيته أول
يوم ، ثم يضيع في أزيز محركات السيارة ، وصوت احتكاك
بجصى الصحراء ، واحاول جاهداً استعادته فلا استطيع .
يوم الاحتفال بختان الولدين ، خلعت حسنه الثوب عن رأسها
ورقصت كما تفعل الأم يوم ختان ولدها . يا لها من امرأة .
لماذا لا تتزوجها انت ؟ كيف كانت ايزابيلا سيمور تناجيه ؟
« اغتلي ايها الغول الأفريقي . احرقني في نار معبدك أيها الإله
الاسود . دعني أتلو في طقوس صلواتك العربية المهيجة ،
وها هنا منبع النار . ها هو المعبد . لائي . الشمس
والصحراء ونباتات يابسة وحيوانات عجفاء . وهتز كيان

السيارة حين تنحدر في واد صغير . وتمر بعظام جمل نفق من
العطش في هذا التيه . ويعود إلى خيالي وجه مصطفى سعيد
في وجه ابنه الأكبر . انه اكثر الولدين شبهاً به . يوم حفلة
الحلتان انا ومحجوب شربنا اكثر مما يجب . الناس في بلادنا
لرتابة الحياة عندهم يجعلون من أي حدث سعيد مهما صغر عذراً
لاقامة حفل كحفل العرس . جررته من يده في الليل ،
والمغنون يغنون والرجال يصفقون في قلب الدار . وقفنا
أمام باب الغرفة تلك . قلت له : « أنا وحدي عندي
المفتاح . باب من الحديد » . قال لي محجوب بصوته الخمور :
« هل تدري ما بداخلها ؟ » قلت له : « نعم » قال :
« ماذا ؟ » فقلت وأنا اضحك تحت وطأة الخمر :
« لا شيء . لا شيء إطلاقاً » . هذه الغرفة عبارة عن
نكتة كبيرة . كالحياة . تحب فيها سرّاً وليس فيها
شيء . « لا شيء إطلاقاً » . وقال محجوب : « أنت
سكران ، هذه الغرفة مليئة من أرضها إلى سقفها بالكنوز .
ذهب ، وجواهر ، ودرر ولآلى . هل تعلم من هو مصطفى
سعيد ؟ » قلت له ان مصطفى سعيد كان أكلوبة ، وضحكت
مرة أخرى ضحكة مخمورة وقلت له : « هل تريد أن تعرف
حقيقة مصطفى سعيد ؟ » فقال محجوب : « أنت لست
سكران بل مجنوناً أيضاً . مصطفى سعيد هو في الحقيقة نبي
الله الخضر . يظهر فجأة ويغيب فجأة . والكنوز التي في هذه
الغرفة هي كنوز الملك سليمان حملها الجان إلى هنا . وأنت

عندك مفتاح الكنز . « افتح يا سمسم ودعنا نفرق الذهب
والجواهر على الناس » . وكاد محجوب يصرخ ويجمع الناس
لولا انني أغلقت فمه بيدي . وفي الصباح استيقظ كل واحد
منا في بيته لا ندري كيف وصلنا . والطريق لا ينتهي عند
حد ، والشمس لا تكمل . لا غرو أن مصطفى سعيد هرب
إلى زمهرير الشمال . ايزابيلا سيمور قالت له : « المسيحيون
يقولون أن الهم صلب ليحمل وزر خطايهم . انه إذن مات
عبثاً . فما يسمونه الخطيئة ما هو إلا زفرة الاكتفاء بمعانفتك
يا إله وثنيي . أنت إلهي ، ولا إله غيرك » . لا بد أن هذا
هو سبب انتحارها ، وليس مرضها بالسرطان . كانت مؤمنة
حين قابلته . كفرت بدينها وعبدت إلهاً كعجل بني إسرائيل .
يا للغرابة . يا للسخرية . الانسان لمجرد انه خلق عند خط
الاستواء ، بعض المجانين يعتبرونه عبداً وبعضهم يعتبرونه
إلهاً . أين الاعتدال ؟ أين الاستواء ؟ وجدي بصوته النحيل
وضحكته الخبيثة حين يكون على سجيته ، أين وضعه في هذا
البساط الأحمدي ؟ هل هو حقيقة كما أزعم أنا وكما يبدو هو ؟
هل هو فوق هذه الفوضى ؟ لا أدري . ولكنه بقي على أي
حال ، رغم الأوبئة وفساد الحكم وقسوة الطبيعة . وأنا موقن
أن الموت حين يبرز له سيبتسم هو في وجه الموت . ألا يكفي
هذا ؟ هل ابن آدم مطالب بأكثر من هذا ؟ وبرز لنا من وراء
التل اعرابي جاء يهرول نحونا ، وقطع الطريق على السيارة
فتوقفنا . بدنه وثيابه بلون الأرض . وسأله السائق ماذا

يريد ؟ قال : « أعطوني سيجارة أو تنباك لوجه الله . لي
يومان لم أذق طعم التنباك » . لم يكن عندنا تنباك فأعطينه
سيجارة . وقلنا بالمرّة نفق قليلا ونستريح من غناء الجلوس .
لم أرَ في حياتي انسانا يشرب السجائر بتلك اللهفة . جلس
الاعرابي على مؤخرته وأخذ يشفط الدخان بنهم فوق الوصف .
بعد دقيقتين مد لي يده فأعطينه سيجارة أخرى . التهمها كما
فعل مع الأولى . ثم أخذ يتلوى على الأرض كأنه مصاب
بالصرع . وبعدها تمدد على الأرض وطوق رأسه بيديه وهمد
تماما كأنه ميت . وظل هكذا طويلا مكوّنا ، زماء ثلاث
ساعة . ولما دارت محركات السيارة ، هب واقفا ، انسانا بعث إلى
الحياة ، وأخذ يحمدي ويدعو الله لي بطول العمر ، فرميت
له علبة السجائر بما بقي فيها . وثار الغبار خلفنا ، وراقبت
الاعرابي يجري نحو خيام مهلهلة عند شجيرات ناحية الجنوب .
عندها غنيات وأطفال عراة . ابن الظل يا إلهي ؟ مثل هذه
الأرض لا تثبت . لا الأنبياء . هذا القحط لا تدأويه إلا
السماء . والطريق لا ينتهي والشمس لا ترحم ، والسيارة الآن
تلول ولولة على أرض من الحصى مبسوطة كالمائدة . « إنا قوم
منقطع بنا فحدوثنا أحاديث نتجمل بها » . من قال هذا ؟
ثم : « كالنبت لا أرضا قطع ولا ظهراً أبقى » . والسائق لا
يتكلم . امتداد للمكنة التي يديرها ، يلعبها أحيانا ويشتمها ،
والأرض حولنا دائرة غرقى في السراب . « وظل يرفعنا آل
ويخفضنا آل وتلفظنا بيد إلى بيد » . محمد سعيد العباسي ،

ياله من شاعر . وأبو نواس . « شربنا شرب قوم ظمئوا من
 عهد عاد » . هذه أرض اليأس والشعر ولا أحد يغني .
 ولقينا سيارة حكومة معطلة حولها خمسة عساكر وشاويش
 متدرعين البنادق . وقفنا . شربوا من مائنا وأكلوا من زادنا
 وأعطيناهم البنزين . قالوا ان امرأة من قبيلة المريصاب قتلت
 زوجها والحكومة ذاهبة لتقبض عليها . ما اسمها ؟ ما اسمه ؟
 لماذا قتلته ؟ لا يعرفون — فقط انها من قبيلة المريصاب وانها
 قتلته وأنه زوجها . ولكنهم سيعرفونه . قبائل المريصاب
 والهاوير والكبابيش . القضاة المقيم منهم والمتنقل . مفتش
 شمالي كردفان ، مفتش جنوبي الشمالية ، مفتش شرقي الخرطوم .
 الرعاة على مساقط الماء . المشايخ والنظار . البدو في خيام
 الشعر ، في سفارق الوديان . كلهم سيعرفون اسمها ، فليس كل
 يوم تقتل امرأة رجلا ، بله زوجها ، في هذه الأرض التي لم
 تترك الشمس فيها قتلا لقاتل . وخطرت لي فكرة ، قلبتها في
 ذهني ثم قررت أن أعبر عنها وأرى ما يحدث . قلت لهم انها
 لم تقتله بل هو مات من ضربة الشمس ، كما ماتت ايزابيلا سيمور
 وشيلا غرينود وآن همد وجين مورس . لم يحدث شيء .
 وقال الشاويش : « كان . عندنا قنطان بوليس ملعون اسمه
 ماجور كوك » . لا فائدة . لا دهشة . وساروا وسرنا .
 الشمس هي العدو . انها الآن في كبد السماء تماما ، كما يقول
 العرب . يا للكبد الحري . وستظل هكذا ساعات لا تتحرك ،
 أو هكذا يخيل للكائن الحي ، حتى يثن الحجر ويبكي

الشجر ويستغيث الحديد . بكاء امرأة تحت رجل عند الفجر ،
 وفخذان بيضاوان مفتوحتان . هما الآن كعظام الجمال الجافة
 المتناثرة في الصحراء . لا طعم . لا رائحة . لا خبر . لا شر .
 عجلات السيارة تصدم الحصى بحقد . طريقه المموج مرعاف
 ما يؤدي به إلى الكارثة . وفي الغالب تكون الكارثة واضحة
 أمامه وضوح الشمس ، بحيث أننا نعجب كيف أن رجلاً
 ذكياً كهذا ، هو في الحقيقة في غاية الغباء . انه منح قدراً
 عظيماً من الذكاء ولكنه حرم الحكمة . انه أحق ذكي .
 هذا ما قاله القاضي في « الأولد بيلي » قبل أن يصدر الحكم .
 والطريق لا ينتهي والشمس واضحة وضوح الشمس . سأكتب
 لمسر روبنسن . تعيش في شانكلن في آيسل أوف وايت .
 علق عنوانها بذاكرتي من حديث مصطفى سعيد تلك الليلة .
 زوجها مات بالتيفوئيد ودفن في القاهرة في مقبرة الإمام
 الشافعي . نعم ، اعتنق الإسلام . مصطفى سعيد قال انها
 حضرت المحاكمة من أولها إلى آخرها . كان هادئاً طول المدة .
 بعد أن صدر الحكم بكى على صدرها . مسحت رأسه وقبلته
 على جبهته وقالت : « لا تبك يا طفلي العزيز » . لم تكن تحب
 جين مورس . حذرته من زواجها . سأكتب لها فلعلها تلقي
 الضوء ، لعلها تذكر أشياء هونسيها أو أهمل ذكرها .
 وانتهت الحرب فجأة بالنصر . شفق المغيب ليس دماً ولكنه
 حناء في قدم المرأة ، والنسيم الذي يلاحقنا من وادي النيل
 يحمل عطراً لن يرضب في خيالي ما دمت حياً . وكما تحط

قافلة رحالها حططنا رحلنا . بقي من الطريق أقله . طعمنا
 وشربنا . ص - إلى أناس صلاة العشاء ، والسواق ومساعدوه
 أخرجوا من أضابير السيارة قناني الخمر ، وأنا استلقيت على
 الرمل وأشعلت سيجارة وتمت في روعة السماء . والسيارة
 أيضاً سقيت الماء والبنزين والزيت ، وهي الآن ساكنة راضية
 كمهرة في مزاجها . انتهت الحرب بالنصر لنا جميعاً ،
 الحجارة والأشجار والحيوانات والحديد ، وأنا الآن تحت هذه
 السماء الجميلة الرحيمة أحس أننا جميعاً أخوة . الذي يسكر
 والذي يصلي والذي يسرق والذي يزني والذي يقاتل والذي
 يقتل . ينبوع نفسه . ولا أحد يعلم ماذا يدور في خلد الآله .
 لعله لا يبالي . لعله ليس غاضباً . في ليلة مثل هذه تحس أنك
 تستطيع أن ترقى إلى السماء على سلم من الجبال . هذه أرض
 الشعر والممكن وابتقي اسمها أمل . منهدم وسنوبي ومنخفض
 الشمس ذاتها لأرادتنا ومنهزم الفقر بأي وسيلة . السواق
 الذي كان صامتاً طول اليوم ها قد ارتفعت عقيرته بالفناء .
 صوت عذب سلسيل لا تحسب أنه صوته . يغني لسيارته كما كان
 الشعراء في الزمن القديم يغنون لجمالهم :

در كسوك نخرطه وقايم على بولاد

وغیر ست النفور الليلة ما في رقاد

وارتفع صوت آخر يجاوبه :

تأرين السفر من دار كول والكمبو

هوزز راسه فرسان بالسفر يقننه
أب دومات غرفن عرقه اتنادن به
ضرب الفجة وأصبح ناره تاكل الجنبه

ثم نبع صوت ثالث يجاوب الصوتين :

واوحىي ووا وجع قلبي
من صيدة القنص الفتوت كلبي
القاري العلم من دينه بتلمي
والماشى الحجاز من جده بتقلي

نحن هكذا وكل سيارة تمر بنا طالعة أو نازلة ، تقف ،
حتى اجتمعت قافلة عظيمة ، أكثر من مائة رجل طعموا
وشربوا وصلوا وسكروا . ثم تحلقنا حلقة كبيرة ، ودخل
بعض الفتيان وسط الحلقة ورقصوا كما ترقص البنات .
وصفقنا وضربنا الأرض بأرجلنا وحممنا بحلقنا ، وأقمنا في
قلب الصحراء فرحاً للأشيء . وجاء أحد بمذباغه الترانزستور ،
وضعناه وسط الدائرة ، وصفقنا ورقصنا على غنائمه .
وخطرت لأحد فكرة ، فصف السواقون سياراتهم على هيئة
دائرة وساطروا أضواءها على حلق الرقص ، فاشتعلت شعلة من
الضوء لا أحسب تلك البقعة رأت مثلها من قبل . وزغرد
الرجال كما تزغرد النساء وانطلقت أبواق السيارات جميعاً في
آن واحد . وجذب الضوء والضجة البدو من شعاب الوديان
وسفوح التلال المجاورة ، رجال ونساء ، قوم لا تراهم بالنهار

كأنهم يذوبون تحت ضوء الشمس . اجتمع خلق عظيم ودخلت
 الحلقة نساء حقيقيات ، لو رأيتن نهاراً لما أعرتن نظرة ،
 ولكنهن جميلات في هذا الزمان والمكان . وجاء اعرابي
 بخروف وكأه وذبحه وشوى لحمه على نار أوقدها . وأخرج أحد
 المسافرين من السيارة صندوقين من البيرة وزعها وهو يهتف :
 « في صحة السودان . في صحة السودان » . ودارت صناديق
 السجائر وعلب الحلوى ، وغمت الاعرابيات ورقصن ،
 وردد الليل والصحراء أصداء عرس عظيم كأننا قبيل من الجن .
 عرس بلا معنى ، مجرد عمل يانس تبسع ارتجالاً كالأعاصير
 الصغيرة التي تنبع في الصحراء ثم تموت . وعند الفجر تفرقنا .
 عاد الاعراب أدراجهم إلى شعاب الأودية . تصايح الناس :
 « مع السلامة . مع السلامة » . وركضوا كل إلى سيارته .
 أرت المحركات ، وتحولت الأضواء من المكان الذي كان قبل
 لحظات مسرح أنس ، فعاد إلى سابق عهده ، جزء من
 الصحراء . واتجهت أضواء السيارات ، بعضها نحو الجنوب
 صوب النيل ، وبعضها نحو الشمال صوب النيل . وثار الغبار
 واختفى ثم ثار واختفى . وأدركنا الشمس على قمم جبال
 كررى أعلى أم درمان .

دارت الباخرة حول نفسها حتى لا تكون المحركات في مجرى التيار. كل شيء كما يحدث كل مرة . الصفارة المبحوحة ، والقوارب من الشاطئ ، المقابل ، شجر الجميز واللغط على رصيف المحطة . الا من فارق عظيم . وخرجت وصافحني محجوب وهو يتجنبني بنظراته . كان وحده في استقبالي هذه المرة . وكان خجلاً كأنه يحس بالذنب ، أو كأنه يحتملي أنا المسئولة . ولم أكد أصافحه حتى قلت له : « كيف تركتم هذا يحدث ؟ » قال محجوب وهو يسوي سرج الحمارة السوداء الطويلة ، حمارة عمي عبد الكريم : « الذي كان . ولدان بخير وهما عندي » . انني لم أفكر في الولدين طوال هذه الرحلة المشؤومة . كنت أفكر فيها . قلت لمحجوب مرة أخرى : « ماذا حدث ؟ » لا يزال يتجنب وجهي . ظل صامتاً . أصلح الفروة على السرج ، وربط البطان حول بطن حماره . أزاح السرج إلى الأمام قليلاً وأمسك عنان اللجام ثم قفز . ظلت واقفاً أنتظر الرد الذي لم يأت فقفزت

أنا أيضاً . قال وهو يلكرز حمارة : « كما أخبرتك في البرقية . لا فائدة من الخوض في الموضوع . لم نكن نتوقع حضورك على أي حال » . قلت له أشجعه على الكلام : « ليتني عملت بنصيحتك وتزوجتها » . لم أستفد سوى أنني زدت صمته عمقاً . ولا بد أنه كان غاضباً ، فقد لكرز الحمارة لكرزة قوية بكمبه والحمارة لم تفعل شيئاً . قلت له وأنا ألاحقه ولا ألقه : « منذ وصلتني برقيتك وأنا لم آكل ولم أنم ولم أتكلم مع إنسان . ثلاثة أيام من الخرطوم بالقطار والباخرة وأنا أفكر وأسأل نفسي كيف حدث ما حدث ولا أجد الجواب » . وكأنما رثى لحالي فقال بعطف : « هذه أسرع مرة تعود فيها إلى البلد » . قلت له : « نعم . اثنان وثلاثون يوماً بالضبط » . قال : « هل من جديد في الخرطوم ؟ » قلت له : « كنا مشغولين في مؤتمر » . بدا الاهتمام على وجهه . فإنه يحب أخبار الخرطوم ، خاصة أخبار الفضائح والرشاوي وفساد الحكام . قال باهتمام بالغ واضح ، وقد حز في نفسي أنه نسي ما نحن فيه : « بماذا يأترون هذه المرة ؟ » قلت له بإعياء ، وقد فضلت اختصار الطريق : « وزارة المعارف نظمت مؤتمراً دعت له مندوبين عن عشرين قطراً أفريقياً لمناقشة سبل توحيد أساليب التعليم في القارة كلها . كنت أنا عضواً في سكرتارية المؤتمر » . قال بحجوب : « فليبنوا المدارس أولاً ثم يناقشوا توحيد التعليم . كيف يفكر هؤلاء الناس ؟ يضيعون الوقت في المؤتمرات والكلام الفارغ ونحن هنا

أولادنا يسافرون كذا ميلا للمدرسة . ألسنا بشراً ؟ ألسنا
ندفع الضرائب ؟ أليس لنا حق في هذا البلد ؟ كل شيء في
الخرطوم . ميزانية الدولة كلها تصرف في الخرطوم . مستشفى
واحد في مروي يسافر له ثلاثة أيام ، النساء يمتن أثناء الوضع .
لا توجد داية واحدة متعلمة في هذا البلد . وأنت ماذا تصنع
في الخرطوم ؟ ما الفائدة أن يكون لنا ابن في الحكومة
ولا يفعل شيئاً ؟ »

كانت حمارتي قد فاتته ، فجذبت لجامها حتى يلحق بي
وآثرت الصمت . لو كان الوقت غير هذا الوقت لصرخت في
وجهه ، فأنا وهو هكذا منذ طفولتنا ، يصرخ أحداً على
الآخر حين يغضب . ثم نرضى وننسى . ولكنني جائع ومتعب
وقلبي مثقل بهم عظيم . لو كان الزمان أحسن مما هو عليه
الآن ، لأضحكته وأغضبته بقصص ذلك المؤتمر . لن يصدق
أن سادة أفريقيا الجدد ، ملس الوجوه ، أفواههم كأفواه
الذئاب ، تلمع في أيديهم ختم من الحجارة الثمينة ، وتفوح
نواصيرهم برائحة العطر ، في أزياء بيضاء وزرقاء وسوداء
وخضراء من الموهير الفاخر والحريير الغالي تنزلق على أكتافهم
كجلود القطط السيامية ، والأحذية تعكس أضواء الشمعدانات ،
تصر صريراً على الرخام — لن يصدق محبوب أنهم تدارسوا
تسعة أيام في مصير التعليم في أفريقيا في « قاعة الاستقلال »
التي بنيت لهذا الغرض ، وكلفت أكثر من مليون جنيه ، صرح

من الماجر والاسمنت والرخام والزجاج ، مستديرة كاملة الاستدارة ، وضع تصميمها في لندن ، ردهاتها من رخام أبيض جلب من إيطاليا ، وزجاج النوافذ ملون ، قطع صغيرة مصفوفة بمهارة في شبكة من خشب التيك ، أرضية القاعة مفروشة بسجاجيد عجمية فاخرة ، والسقف على شكل قبة مطلية بذهب ، تتدلى من جوانبها شمعدانات كل واحد منها بحجم الجمل العظيم . المنصة حيث تعاقب وزراء التعليم في أفريقيا طوال تسعة أيام من رخام أحمر كالذي في قبر نابليون في الانفاليد ، وسطحها أملس لماع من خشب الابنوس . على الحيطان لوحات زيتية ، وقبالة المدخل خريطة واسعة لأفريقيا من المرمر الملون ، كل قطر بلون . كيف أقول المحجوب أن الوزير الذي قال في خطابه الضافي الذي قوبل بعاصفة من التصفيق : « يجب ألا يحدث تناقض بين ما يتعلمه التلميذ في المدرسة وبين واقع الشعب . كل من يتعلم اليوم يريد أن يجلس على مكتب وثير تحت مروحة ويسكن في بيت محاط بحديقة مكيف بالهواء يروح ويحيى في سيارة أمريكية بعرض الشارع . اننا إذا لم نجتث هذا الداء من جذوره تكونت عندنا طبقة برجوازية لا تمت إلى واقع حياتنا بصلة ، وهي أشد خطراً على مستقبل أفريقيا من الاستعمار نفسه » - كيف أقول المحجوب أن هذا الرجل بعينه يهرب أشهر الصيف من أفريقيا إلى فيلته على بحيرة لوكارنو ، وأن زوجته تشتري حاجياتها من هرودز في لندن ، تجيئها في طائرة خاصة ، وأن

أعضاء وفده أنفسهم يجاهرون بأنه فاسد مرتش ، ضيع الضياع وأقام تجارة وعمارة ، وكون ثروة فادحة من قطرات العرق التي تنضح على جباه المستضعفين أنصاف العراة في الغابات ؟ هؤلاء قوم لاهم لهم إلا بطونهم وفروجهم . لا يوجد عدل في الدنيا ولا اعتدال . وقد قال مصطفى سعيد : « إنما أنا لا أطلب المجد ، فمثلي لا يطلب المجد » . لو انه عاد عودة طبيعية لأنضم إلى قطيع الذئاب هذا . كلهم يشبهونه ، وجوه وسيمة ووجوه وسمتها النعمة . وقد قال أحد الوزراء أولئك في حفلة اختتام المؤتمر انه كان استاذة . أول ما قدموني له هتف : « انك تذكرني بصديق عزيز كنت على صلة وثيقة به في لندن . الدكتور مصطفى سعيد . كان أستاذاً عام ١٩٢٨ . كان هو رئيساً لجمعية الكفاح لتحرير أفريقيا وكنت أنا عضواً في اللجنة . يا له من رجل . انه من أعظم الأفريقيين الذين عرفتهم . كانت له صلات واسعة . يا إلهي ، ذلك الرجل . كانت النساء تتساقط عليه كالذباب . كان يقول سأحرر أفريقيا بـ ... ي » وضعك حق بانك مؤخرة حلقه . وأردت أن أسأله ، لكنه اختفى في زحمة الرؤساء والوزراء . مصطفى سعيد لم يعد يعينني الآن ، فقد شغلت عنه بنفسه . برقية محجوب غيرت كل شيء . حين قرأت رد مسز روبنسن على رسالتي أول مرة أحسست بفرح عظيم . وفي القطار قرأتها للمرة الثانية ، محاولاً أن أبعد أفكاري عن تلك النقطة التي صارت محور دورانها . ولكن دون جدوى .

ومضت المحير تتقاذف الحجارة بأظلافها ، وقال محجوب :
« لماذا صمت كأنك أبكم ؟ لماذا لا تقول شيئاً ؟ » قلت له :
« الموظفون أمثالي لا يستطيعون أن يغيروا شيئاً . إذا قال
سادقتنا افعلوا كذا فعلنا . أنت رئيس الحزب الوطني الاشتراكي
الديموقراطي هنا . انه الحزب الحاكم . لماذا لا تصب غضبك
عليهم ؟ »

وقال محجوب كالمعتذر : « لولا ... لولا أن هذه الكارثة
قد ... يوم الحادث كنا نتأهب للسفر في وفد المطالبة ببناء
مستشفى كبير ومدرسة وسطى للبنين ومدرسة أولية للبنات
ومدرسة زراعة و ... » وقطع خطبته فجأة ولاذ بصمته
الغاضب . ونظرت أنا إلى النهر إلى يسارنا يلعب بالخطر ويدوي
بأصوات مبهمه . ثم أمامنا القباب العشر وسط المقبرة .
وحزت الذكرى في قلبي ، وقال محجوب : « دفناها أول
الصباح دون ضوضاء . أمرنا النساء ألا يبكين . لم نقم مأتماً
ولم نخبر أحداً . كان سيجيئنا البوليس . وتحقيق وفضائح » .
قلت له بذعر : « لماذا البوليس ؟ » نظر إلي برهة ثم سكت ،
وبعد مدة طويلة قال : « بعد أسبوع أو عشرة أيام من سفرك ،
أبوها قال انه أعطى ود الرئيس وعداً . عقدوا له عليها .
أبوها شتمها وضربها وقال لها : تتزوجينه رغم أنفك . أنا لم
أحضر العقد . لم يحضر أحد العقد غير بكري وجدك وبنت
مجدوب . أصدقاؤه . أنا شخصياً حاولت أن أثني ود الرئيس

عن عزمه ، ولكنه أصر . كأنما أصابه هوس . وكلمت أباها فقال انه لا يصبح اضحوك ، يقول الناس ابنته لا تسمع كلامه . بعد الزواج قلت لود الرئيس يأخذها بالسياسة . أقامت عنده اسبوعين لا تكلمه ولا يكلمها . كانت ... كان في حالة لا توصف . كالجنون . اشتكى لطوب الأرض . يقول كيف تكون في بيته امرأة تزوجها بسنة الله ورسوله ولا يكون بينها ما يكون بين الزوج وزوجته . كنا نقول له : اصبر . ثم ...

الحمار والحمار نهقا بغتة في آن واحد حتى كدت أسقط من على السرج . ولبثت أسأل يومين بطولها ولا أحد يقول لي . كلهم كانوا يتجنبونني بنظراتهم كأنهم شركاء في إنهم عظيم . وقالت أمي : « لماذا تركت عملك وبحثت ؟ » قلت لها : « الولدان » . نظرت إلي برهة نظرة فاحصة وقالت : « الأولاد » ، أم ، أم الأولاد ؟ ماذا بينك وبينها ؟ جاءت لأبيك وقالت له بلسانها : قولوا له يستزوجني . يا منجراً وفراغة العين . « نساء آخر زمن » . وكله كوم والفعل القبيح الذي فعلته كوم ،

وجدي أيضاً لم يسمفني بشيء . وجدته راقداً على سريره في حالة من الإعياء لم أعرفها فيه . كان كأنما ينبوع الحياة عنده قد نضب فجأة ظلت جالسا وظل هو لا يتكلم . فقط يتأوه من آن لآخر ، ويتقلب على سريره ويستعيا بالله من الشيطان الرجيم . كلما فعل ذلك أحس بوخز ، كأن بيني

وبين الشيطان سبياً . وبعد انتظار طويل قال يخاطب سقف
 الغرفة : « لعنة الله على النسوان . النسوان اخوات الشيطان .
 ود الرئيس ، ود الرئيس » . وانفجر جدي يبكي . انني لم
 أراه يبكي في حياتي . بكى طويلاً ثم مسح دموعه بطرف
 ثوبه وصمت حتى ظننته قد نام . بعد زمن قال : « رحمة
 الله عليك يا ود الرئيس . اللهم أغفر له وتقدمه برحمتك » .
 وتتم بدعوات وقال : « كان رجلاً عديم النظر ، دائماً
 يضحك ، دائماً تجده وقت الشدة . لم يطلب منه أحد حاجة
 وقال لا . ليته سمع كلامي . ينتهي هذه النهاية . لا حول
 ولا قوة إلا بالله . أول مرة يحصل شيء مثل ذلك في هذا
 البلد منذ خلقه الله . نحن آخر الزمن » . تشجعت وسألته :
 « ماذا حدث ؟ »

لم يحفل بسؤالي وتشاغل زمناً بمسبحته ثم قال : « تلك
 القبيلة لا يجيء من ورائها إلا الشر . قلت لود الرئيس : هذه
 المرأة شؤم . أبعد عنها . انما الأجل ... »

في صبيحة اليوم الثالث حملت زجاجة الوسكي في جيبي
 وذهبت إلى بنت مجذوب . إذا لم تال لي بنت مجذوب فلن
 يقول لي أحد . وصبت بنت مجذوب من الزجاجة في إناء كبير
 من الالمون ، وقالت : « لا بد انك تريد شيئاً . نحن لا نعرف
 هنا مثل خمر المدن هذه » .

قلت لها : « أريد أن أعرف ما حدث . لا أحد يريد أن يخبرني » .

شربت جرعة كبيرة من الإناث وقطبت وجهها وقالت :
« الفعل الذي فعلته بنت محمود لا يجري به اللسان . شيء ما رأينا ولا سمعنا بمثله لا في الزمن السابق ولا اللاحق » .

وتماسكت ، ولبثت أنتظر صابراً حق مضى ثلث الزجاجة والخمر لا تؤثر فيها ، إلا من بهجة وجهها تزداد وضوحاً مع الشراب . أغلقت بنت مجذوب الزجاجة وقالت : « هذا يكفي . خمر النصارى هذه جبارة » ، ليست كعرق التمر ،

نظرت اليها بضراعة فقالت : « الكلام الذي سأقوله لك لن تسمعه من إنسان في البلد . دفنوه مع بنت محمود ومع ود الرئيس المسكين . كلام عيب صعب أن يقال » . ثم نظرت إلي نظرة فاحصة بعينها الجريئتين وقالت :

« هذا كلام لن يعجبك . خصوصاً إذا ... » وأطرقت برهة فقلت لها : « أريد أن أعرف ما حدث كبقية الناس . لماذا أنا الوحيد الذي لا يصح له أن يعرف ؟ »

أعطيتها سيجارة جذبت منها نفساً وقالت : « بعد صلاة العشاء بزمان استيقظت على صراخ حسنة بنت محمود في دار ود الرئيس . كان البلد ساكناً لا تسمع فيه حساً . الحق لله انني ظننت أن ود الرئيس أخيراً قال حقه منها . الرجل

المسكين أشرف على الجنون . أسبوعين مع المرأة لا تكله ولا تدعه يقربها . وفتحت أذني مرة وهي تصرخ وتولول . اللهم يا رب اغفر لي . ضحكت وأنا أسمع صراخها . قلت في نفسي : ود الرئيس ما تزال فيه بقية . واشتد الصراخ . وسمعت حركة في بيت بكري لصق بيت ود الرئيس . وسمعت بكري يصيح : يا راجل اخشي على دمك . لازم تعمل لك فضيحة وهلولة . ثم سمعت سعيدة امرأة بكري تقول : يا بت احفظي شرفك ، ما هذه الفضائح ؟ العروس البكر لا تعمل هذا العمل . كأنك لم تجربي الرجال من قبل . وأخذ صراخ بنت محمود يشتد ، ثم سمعت ود الرئيس يصرخ بأعلى صوته : يا بكري . يا حاج أحمد . يا بت الرئيس . يا جماعة . بت محمود قتلتني . قفزت وثوبي يخرج رائي لا يكاد يسترني ، وخطيت باب بكري وباب محجوب ، وجريت إلى باب ود الرئيس فوجدت باب الحوش مغلقاً . ولوات بأعلى صوتي وجاء محجوب ثم بكري ثم اجتمع علينا الناس . ونحن نكسر باب الحوش سمعنا صرخة . صرخة واحدة تهد الجبال من ود الرئيس . ثم صرخة مثلها من بنت محمود . ودخلت أنا محجوب وبكري . قلت لمحجوب : احبس الناس من دخول البيت . لا تدع امرأة تدخل البيت . وخرج محجوب وصرخ في الناس ، وعاد معه عمك عبد الكريم وسعيد الطاهر الرواسي وحق جدك المسكين جاء من بيته .

أخذ العرق يتصبب بفزارة من وجه بنت مجذوب .
وجف حلقها وأشارت إلى الماء فجعلتها به . شربت ومسحت
العرق من وجهها وقالت : « أستغفر الله العظيم وأتوب إليه .
وجدناهما في غرفة ود الرئيس القصيرة المطة على الشارع . كان
المصباح موقداً . ود الرئيس عارياً كما ولدته أمه . وبنت محمود
ثوبها ممزق وسراويلها . هي الأخرى عارية . كان البرش
الأحر يعوم في الدم . ورفعت المصباح . وجدت بنت محمود
معضونة ومخدشة في كل شبر من جسمها . بطنها . أوراكها .
رقبتها . عض حلمة نهدا حق قطعها . الدم يسيل من شفتها
السفلى . لا حول ولا قوة إلا بالله . وود الرئيس مطعون أكثر
من عشرة طعنات . طعنته في بطنه وفي صدره وفي محسنه .
ولم تستطع بنت مجذوب أن تستمر . بلعت ريقها
بصعوبة وارتعش حلقومها ثم قالت : « اللهم لا اعتراض على
حكمك . وجدناها على ظهرها والسكين مغروز في قلبها .
فما مفتوح ، وعيناها تبجلق كأنها حية . وود الرئيس
لسانه مدلدل بين فكليه ، وذراعا مرفوعتان في الهواء »

وغطت بنت مجذوب وجهها بيدها والعرق يتصبب من
بين أصابعها وقد أخذ صدرها يعلو ويهبط بسرعة وتتابع .
قالت بصعوبة : « استغفر الله العظيم . كنا قد ماتا لساعتها .
كان الدم حاراً يبقبق من قلب بنت محمود وبين فخذي ود
الرئيس . الدم ملأ البرش والسرير وجري جداول في أرض

الغرفة . محجوب أطال الله عمره كان رابط الجأش . حين
سمع صوت محمود قفز خارجاً وقال لأبيك : اياك أنت تدعه
يدخل . محجوب ، وبقيّة الرجال حملوا ود الرئيس ، وأنا وزوجة
بكري والنساء الكبار أخذنا بنت محمود . كفناهما في ليلتهما .
وحملوهما قبل طلوع الشمس . ودفنوهما ، هي بجوار أمها
وهو بجوار زوجته الأولى بنت رجب . بعض النساء بدأن
مأتما . ولكن محجوب بارك الله فيه جاء ونهرهن وقال : التي
تفتح فيها سأقطع رقبتها . أي مأتم يا ولدي يقام في هذه
الحالة ؟ هذه مصيبة كبيرة حصلت في البلد . طول حياتنا
تحت ستر الله . آخر الزمن يحصل علينا مثل هذا . أستغفرك
وأتوب إليك يا رب »

وبكت هي أيضاً كما بكى جدي . بكّت طويلاً وبجربة ،
ثم ابتسمت من خلال دموعها وقالت : « العجيب في الأمر أن
زوجه الكبيرة مبروكة لم تصح من نومها طول هذه المدة ،
مع أن الصياح جذب الناس من طرف المحلة . رحت إليها
وهزرتها فرفعت رأسها وقالت : « بنت مجذوب ، ماذا جاء
بك في هذا الوقت ؟ » قلت لها : « قومي . حصلت قنلة في
بيتكم » . فقالت : « قنلة من ؟ » قلت لها : « بنت محمود
قتلت ود الرئيس وقتلت نفسها » . فقالت : « في ستين داهية »
وواصلت نومها . وكنا ونحن نجهز بنت محمود نسمع شخيرهات .
ولما عاد الناس من الدفن وجدناها جالسة تشرب قهوتها .

بعض النساء أردن أن يبكين معها فصرخت فيهن : « يانساء .
كل واحدة تروح في حالها . ود الرئيس حفر قبره بيده .
وبنت محمود بارك الله فيها ، خلصت منه القديم والجديد » .
ثم زغردت . أي والله يا ولدي ، زغردت . وقالت للنساء :
« نكاية فيكن . التي لا يعجبها تشرب من البحر » . أستغفر
الله العظيم . أبوها .. محمود في تلك الليلة كاد يهلك من البكاء .
يخور كالثور . وجدك شتم وضرب بعصاه وزعق وبكى .
عمك عبد الكريم اشتبك مع بكري دون سبب . قال له :
يحصل ذبح يحوارك وأنت نائم ؟ البلد كلها كأنما حل عليه
الشياطين في تلك الليلة . محجوب وحده كان رابط الجأش .
جهز كل شيء . أحضر الأكفان لا ندرى من أين . أولاد ود
الرئيس عملوا دوشة فأسكتهم . منظر لا أراك الله مثله
يا ولدي ، يفطر القلب ، يشيب الوليد . وكله بلا سبب
ولا طلب . انها قبلت الرجل الغريب ، لماذا لم تقبل ود
الرئيس ؟ »

الحقول نيران ودخان . هذا أوان الاستعداد لزراعة
القمح . ينظفون الأرض ويجمعون أعواد الذرة والجدوع
الصغيرة ، ذكريات الموسم الذي انتهى ، ويكومونها أكواماً
وسط الحقول ويحرقونها . الأرض سوداء مبسوطة تستعد
للحدث القادم . الرجال قاماتهم منحنية على المعاول وبهضم
خلف المحاريث . قم النخل ترتعش للهواء الخفيف وتسكن ،

وبخار حار يتصاعد من حقول البرسيم المروية ، تحت وطأة الشمس في منتصف النهار . ومع كل هبة ريح يفرح أريج الليمون والبرتقال واليوسفندي . خوار ثور أو نهيق حمار أو صوت فأس في الحطب . ولكن الدنيا قد تغيرت .

ووجدت محجوباً ملطخاً بالطين ، يندى العرق من جسمه العاري إلا من خرقه حول وسطه ، يحاول أن يفصل شتلة عن النخلة الأم . لم أحبه ولم يلتفت إلي وظل يحفر حول الشتلة . لبثت واقفاً أراقبه ، ثم اشعلت سيجارة ومددت له الصندوق ، فرفض بإشارة من رأسه . حملت همي إلى جذع نخلة قريبة أسندت رأسي إليه . لا مكان لي هنا . لماذا لا أحزم حقيقتي وأرحل ؟ هؤلاء القوم لا يدهشهم شيء . حسبوا لكل شيء حاسبه . لا يفرحون لمولد ولا يحزنون لموت . حين يضحكون يقولون : « أستغفر الله » وأنا ماذا تعلمت ؟ تعلموا الصمت والصبر من النهر والشجر . وأنا ماذا تعلمت ؟ ولاحظت محجوباً عاصاً شفته السفلى كعادته حين يكون مصمماً على عمل . كنت أغلبه في المصارعة والجري ، ويفليني في مباحة النهر إلى الشاطئ الآخر وتسلق النخل . لا تستعصي نخلة عليه . بيني وبينه من الود كأنه أخ شقيق . ولعن محجوب النخلة الصغيرة حين نجح أخيراً في فصلها عن جذع أمها دون أن يكسر جذورها . ردم بالتراب الجرح الكبير الذي بقي في الجذع

حيث كانت ، وقص جريد الشتلة ، وأزال عنها التراب ،
ورماها لتجف في الشمس . قلت في نفسي انه سيكون اكثر
استعداداً للكلام الآن . جاء إلى الظل حيث أنا وجلس ومدد
رجليه . ظل صامتاً برهة ثم تنهد وقال : « أستغفر الله » .
مد يده فأعطيته سيجارة . لا يدخن إلا حين أكون أنا في
البلد ، يقول : « نخرق فلوس الحكومة » . رمى السيجارة
قبل أن يكملها وقال : « أنت تبدو مريضاً . لا بد أن
الرحلة قد أرهقتك . لم يكن يلزم حضورك . حين أرسلت
لك البرقية لم أكن أتوقع أن تحضر » .

قلت كأنني أحدث نفسي : « انها قتلتها وقتلت نفسها .
طعنته أكثر من عشر طعنات و .. يا للبشاعة » .
النفث إلي بدهشة وقال : « من أخبرك ؟ »

مضيت غير مكترث لسؤاله : « عض حمة نهدها حتى
قطعها وعضها وخدشها في كل شبر في جسمها . يا للبشاعة » .
صاح بحجوب بغضب : « لا بد ان بنت مجذوب هي التي
أخبرتكم . لعنهما الله . لا تمسك لسانها هذا كلام لا يصح أن
يقال » .

قلت له : « يقال أو لا يقال ، انه حدث . حدث أمام
أعينكم ولم تفعلوا شيئاً . وأنت . أنت زعيم ورئيس في
البلد ولم تفعل شيئاً » .

وقال محبوب : « ماذا فعل ؟ لماذا لم تفعل أنت ؟ لماذا لم تتزوجها ؟ فقط تفلح في الكلام . المرأة هي التي تجرأت وقالت . عشنا ورأينا النساء تخطب الرجال »

قلت له : « ماذا قالت ؟ »

قال : « الذي كان قد كان . ما فائدة الكلام ؟ احمد الله انك لم تتزوجها . الفعل الذي فعلته ليس فعل بني آدم . فعل شياطين » .

قلت له وأنا أضغط على أسناني : « ماذا قالت ؟ »

نظر إليّ دون عطف وقال : « حين راح لها أبوها وشتمها جاءني في البيت مع شروق الشمس . قالت تخلصها من ود الرئيس وزحمة الخطاب . فقط تعقد عليها . لا تريد منك شيئاً . قالت يتركني مع ولدي ، لا أريد منه قليلاً ولا كثيراً قلت لها : لا تدخلك في المشاكل . نصحتها ان تقبل الأمر الواقع . ابوها ولي امرها وهو حر التصرف . وقلت لها : ود الرئيس لن يعيش إلى الأبد . رجل مجنون وامرأة مجنونة . ما ذنبنا نحن ؟ ماذا كان بوسعنا أن نفعل ؟ مسكين أبوها . منذ ذلك اليوم المشؤم وهو طريح الفراش . لا يخرج ولا يقابل أحداً . ماذا أفعل أنا أو غيري إذا كانت العالم قد أصيب بالخل ؟ واتضح أن جنون بنت محمود ليس مثله في الأولين ولا الآخرين » .

قلت له وأنا أبذل جهداً كبيراً حتى لا أبكي : « حسنة لم تكن مجنونة . كانت أعقل امرأة في البلد . أنتم المهانين .

كانت أعقل امرأة في البلد . وأجل امرأة في البلد . حسنة لم تكن مجنونة .

ضحك محجوب . فقهه بالضحك . سمعته يقول ويضحك :
« يا للعجب . يا بني آدم أصح لنفسك . عد لصوابك .
أصبحت عاشقاً آخر الزمن . جننت مثل ود الريس .
المدارس والتعليم رهفت قلبك . تبكي كالنساء . أما والله
عجائب . حب ومرض وبكاء . إنها لم تكن تساوي ملياً .
لولا الحياء ما كانت تستاهل الدفن . كنا نرميها في البحر أو
نترك جثتها للصقور . »

الذي حدث بعد ذلك ليس واضحاً تماماً في ذهني .
ولكنني أذكر .. يدي مطبقتين على حلق محجوب ، وأذكر
جحوظ عينيه وأذكر ضربة قوية في بطني ، وأذكر محجوباً
جانماً على صدري . وأذكر محجوباً ملقى على الأرض وأنا
أركله بقدمي . وأذكر صوته يصرخ : « مجنون . مجنون . »
وأذكر لفظاً وصباحاً وأنا أضغط بيدي على حلق محجوب ،
وأسمع قرقرة ، وبدأ قوية تجذبني من رقبتني ، ثم وقعت عصا
ثقيلة على رأسي .

العالم فجأة انقلب رأساً على عقب . الحب ؟ الحب لا يفعل هذا . إنه الحقد . أنا حاقد . وطالب ثأر وغريمي في الداخل ولا بد من مواجهته . ومع ذلك ما تزال في عقلي بقية تدرك سخرية الموقف . انني أبتدىء من حيث انتهى مصطفى سعيد ، إلا أنه على الأقل قد اختار وأنا لم أختَر شيئاً . قرص الشمس ظل ساكناً فوق الأفق الغربي زمناً ثم اختفى على عجل . وجيوش الظلام المعسكرة أبداً غير بعيد وثبتت في لحظة واحتلت الدنيا . لو أنني قلت لها الحقيقة لعلها لم تكن تفعل ما فعلت . خسرت الحرب لأنني لم أعلم ولم أختَر . ووقفت زمناً طويلاً أمام باب الحديد . أنا الآن وحدي ، لا مهرب لا ملاذ ، لا ضمان . عالمي كان عريضاً في الخارج ، الآن قد تقلص وارتد على أعقابهِ حتى صرت العالم أنا ولا عالم غيري . أين إذن الجذور الضاربة في القدم ؟ أين ذكريات الموت والحياة ؟ ماذا حدث للقافلة والقبيلة ؟ أين راحت زغاريد عشرات الأعراس وفيضانات النيل وهبوب الريح صيفاً وشتاء

من الشمال والجنوب ؟ الحب ؟ الحب لا يفعل هذا . إنه
الحقد . ها أنذا أقف الآن في دار مصطفى سعيد أمام « باب
الحديد » ، باب الغرفة المستطيلة المثلثة السقف الخضراء
النوافذ . المفتاح في جيبي وغريمي في الداخل على وجهه سعادة
شيطانية لا شك ؟ أنا الوصي والعاشق والغريم .

أدركت المفتاح في الباب فانفتح دون مشقة . استقبلتني
رطوبة من الداخل ورائحة مثل ذكرى قديمة . انني أعرف
هذه الرائحة . رائحة الصندل والند . وتحسست الطريق
بأطراف أصابعي على الحيطان . اصطدمت بزجاج نافذة .
فتحت مصاريع الزجاج وفتحت مصاريع الخشب . فتحت
نافذة وأخرى وثالثة . ولكن لم يدخل من الخارج سوى
مزيد من الظلام . أوقدت ثقاباً . وقع الضوء على عيني كوقع
الانفجار . وخرج من الظلام وجه عابس زاماً شفتيه أعرفه
ولكنني لم أعد أذكره . وخطوت نحوه في حقد . انه
غريمي ، مصطفى سعيد . صار للوجه رقبة ، والرقبة كتفان
وصدر ثم قامة وساقان . ووجدتني أقف أمام نفسي وجهاً
لوجه . هذا ليس مصطفى سعيد . انها صورتي تعبس في
وجهي من مرآة . اختفت الصورة فجأة وجلست في الظلام
زمناً لا أدري حبابه أرهف السمع ولا أسمع شيئاً . اشعلت
ثقاباً آخر فابتسمت امرأة ابتسامة مريرة . وجلست في
واحة الضوء ونظرت حولي فاذا مصباح قديم على المنضدة

أكلد ألمسه بيدي . هزرتـه فاذا فيه زيت . ياللعجب .
أوقدت المصباح فتباعدت الظلال وتباعدت الحيطان وارتفع
السقف . أوقدت المصباح وأغلقت النوافذ . يجب أن تظل
الرائحة حبيسة هنا . رائحة الطوب والخشب والند الحريق
والصندل . . والكتب . يا إلهي . الحيطان الأربعة من الأرض
حتى السقف . رفوف ، رفوف ، كتب ، كتب كتب . أشعلت
سيجارة وملأت رئتي بالرائحة الغريبة . يا له من مغفل . هل
هذا فعل انسان أراد أن يبدأ صفحة جديدة ؟ سأفوضها على
رأسه . سأحرقها . وأشعلت النار في البساط الناعم تحت
قدمي ولبثت أراقبها وهي تلتهم ملكاً فارسياً على جراد
يسدد رمحـه نحو غزال يعدو مبتعداً . ورفعت المصباح فاذا
أرضية الغرفة كلها مغطاة بأبسطة فارسية . ورأيت أن
الحائط المقابل للباب ينتهي بفراغ . ذهبت إليه والمصباح في
يدي فاذا هو . . . يا للحماقة ، مدفأة . تصوروا ، مدفأة
انكليزية بكامل هيئتها وعدتها ، فوقها مظلة من النحاس وأمامها
مربع مبلط بالرخام الأخضر ورف المدفأة من رخام أزرق
وعلى جانبي المدفأة كرسيان فكتوريان مكسوان بقماش من
الحرير المشجر بينهما منضدة مستديرة عليها كتب ودفاتر .
ورأيت وجه المرأة التي ابتسمت لي قبل لحظات . لوحة زيتية
كبيرة في إطار مذهب على رف المدفأة والتوقيع في الركن
الأيمن (م . سعيد) . وانتبهت إلى النار في وسط الحجرة
تكاد تكون حريقاً . خطوت نحوها ثماني عشرة خطوة عدتها

وأنا أخطو ودستها بجذائي حتى انطفأت . أنا طالب ثار
 ولكنني لا أستطيع أن أقدم حب الاستطلاع ، سأرى أولاً
 وأسمع ثم أحرقها فكأنها لم تكن . والكتب .. على ضوء
 المصباح أراها مصنفة مرتبة . كتب الاقتصاد والتاريخ والأدب
 علم الحيوان . جيولوجيا . رياضيات . فلك . دائرة المعارف
 البريطانية ، غبون . ماكولي . طويني . أعمال برناردشو
 كلها . كينز . توني . سميث . روبنسن ، اقتصاد المنافسة
 الغير كاملة . هسن ، الامبريالية . روبنسن ، مقالة .. عن
 الاقتصاد الماركسي . علم الاجتماع . علم الأجناس . علم النفس
 طوماس هاردي . طوماس مان . أي جي مور ، طوماس
 مور ، فرجينيا وولف . وتفنشتاين . أينشتاين . برايري .
 تامير . كتب سمعت بها وكتب لم أسمع بها . دواوين لشعراء
 لا أعلم بوجودهم . يوميات غردون . رحلات غلفر كلينغ .
 هوسمان . تاريخ الثورة الفرنسية ، طوماسي كارلايل .
 محاضرات عن الثورة الفرنسية ، لورد أكتن . كتب مجلدة
 بالجلد . كتب في أغلفة من الورق . كتب قديمة مهلهلة .
 كتب كأنها خرجت من المطبعة لتوها . مجلدات ضخمة في
 حجم شواهد القبور . كتب صغيرة مذهبة الحوافي في حجم
 ورقة الكتشينة . توقيعات . اهداءات . كتب في صناديق
 كتب على الكراسي . كتب على الأرض . أية دعاية هذه ؟
 ماذا يقصد ؟ اوون . فورد . ستيفان زفاينغ . أي جي براون
 لاسكي . هازلت . أليس في أرض العجائب . رتشاردز . القرآن
 بالانكليزية . الانجيل بالانكليزية ، غلبرت مري . افلاطون . اقتصاد

الاستعمار ، مصطفى سعيد . الاستثمار والاحتكار ، مصطفى
سعيد . الصليب والبارود ، مصطفى سعيد . اغتصاب أفريقيا
مصطفى سعيد . بروسبرو وكالبان . الطوطم والتابو . داوتي
لا يوجد كتاب عربي واحد . مقبرة . ضريح . فكرة مجنونة .
سجن . نكتة كبيرة . كنز . افتح يا سمسم ودعنا نفرق
الجواهر على الناس . السقف من خشب البلوط وفي الوسط
قوس يفصل الحجرة نصفين ، يسنده عمودان رخاميان لونها
أصفر ضارب إلى الحمرة . والقوس عليه قشرة من القيشاني
مزر كش الحواف . وأنا أتصدر مائدة مستديرة لا أدري من
أي خشب هي ولكن سطحها داكن يلمع . وعلى كل من
الجانبيين خمس كراسي مبطنة بالجلد . وإلى اليمين كنية ذات
مسند واحد ، مكسوة بمخمل أزرق ، وسائد من ... لمستها
بيدي ، نعم من ريش النعام . ورأيت على يمين المدفأة وعلى
يسارها أشياء لم ألاحظها من قبل . على اليمين منضدة طويلة
عليها شمعدان من الفضة فيه عشر شموع لم تمسها النار قبلا ،
وكذلك على اليسار . أوقدتها شمعة شمعة ، فأضأت أول
ما أضأت اللوحة الزيتية على رف المدفأة . وجهه مستطيل
لامرأة واسعة العينين حاجباها ينعقدان فوقهما . الأنف
أكبر قليلا مما يجب والفم يميل إلى الانساع . وأدركت أن
رفوف الكتب الزجاجية في الحائط المقابل للباب لا تصل
إلى الأرض ولكنها تنتهي على جانبي المدفأة بدواليب مدهونة
بطلاء أبيض بارزة عن رفوف الكتب مقدار قدمين أو ثلاثة .

وكذلك على امتداد الضلع الآخر إلى اليسار . وذهبت
إلى الصور المصفوفة على الرف . مصطفى سعيد يضحك ،
مصطفى سعيد يكتب ، مصطفى سعيد يسبح ، مصطفى
سعيد في مكان ما في الريف ، مصطفى سعيد في الزي
الجامعي ، مصطفى سعيد يجذف في السيربنتاين ، مصطفى
سعيد في تمثيلية الميلاد ، على رأسه تاج ، أحد الملوك الثلاثة
الذين جلبوا المطور والمر للمسيح ، مصطفى سعيد يتوسط
رجلا وامرأة ، مصطفى سعيد لم يترك لحظة تمر إلا وسجلها
للكرى والتاريخ . وأمسكت صورة امرأة وتمعت فيها ،
وقرأت الإهداء بخط منمق : « من شىلا مع كل حي » .
شىلا غرينود بلا شك . قروية من ضواحي هل ، أغراها
بأهدايا والكلام المعسول والنظرة التي ترى الشيء فلا تخطئه .
دوختها رائحة الصندل المحروق والند . حلوة الوجه فعلا ،
تبتسم في الصورة وفي جيدها عقد ، من العاج بلا شك .
ذراعها مكشوفتان وصدرها بارز . كانت تعمل خادمة في
مطعم بالنهار وبالليل تواصل الدراسة في البوليتكنيك . كانت
ذكية تؤمن بأن المستقبل للطبقة العاملة ، وأنه سيحيى يوم
تندم فيه الفروق ويصير الناس كلهم أخوة . كانت تقول له :
« أمي ستجن وأبي سيقتلني إذا علما أنني أحب رجلا أسود
ولكنني لا أبالي » . قال : « كانت تغني لي أغاني ماري لويد
ونحن عراة . كنت أقضي معها أمسيات الخميس في غرفتها
في كامدن تاون وأحيانا تقضي الليل معي في شقي . كانت

تلحس وجهي بلسانها وتقول لي : لسانك قرمزي بلون
الغروب في المناطق الاستوائية . كنت لا أشبع منها ولا
تشبع مني . تتأملني كل مرة كأنها تكتشف شيئاً جديداً .
تقول لي : ما أروع لونك الأسود ، لون السحر والغموض
والأعمال الفاضحة . لقد انتحرت . لماذا انتحرت شيلا
غرينود يا مستر مصطفى سعيد ؟ أنا أعلم أنك تختبئ في
مكان ما من هذه المقبرة الفرعونية التي سأحرقها على رأسك .
لماذا قتلت حسنه بنت محمود ود الرئيس الشيخ وقتلت نفسها
في هذه القرية التي لا يقتل أحد فيها أحداً ؟

والتقطت صورة أخرى وقرأت الإهداء بخط عريض يميل
إلى الأمام : « لك حتى الممات - إيزابيلا » . مسكينة
إيزابيلا سيمور . انني أحس بعطف خاص نحو إيزابيلا سيمور .
مستديرة الوجه ، تميل إلى البدانة ، تلبس رداء قصيراً بمقاييس
ذلك الوقت . ليست تماماً مثلاً من البرونز كما وصفها ولكن
في الوجه طيبة واضحة وتفاؤلاً بالحياة . تبسم . هي أيضاً
تبسم . قال انها كانت زوجة لجراح ناجح ، أما لبنتين وابن .
قضت أحد عشر عاماً في حياة زوجية سعيدة ، تذهب
للكنيسة صباح كل أحد بانتظام ، وتساهم في جمعيات البر .
ثم قابلته واكتشفت في أعماقها مناطق مظلمة كانت مغلفة
من قبل . وبالرغم من كل شيء تركت له رسالة تقول فيها :
« إذا كان في السماء إله ، فأنا متأكدة انه سينظر بعين العطف
إلى طيش امرأة مسكينة لم تستطع أن تمنع السعادة من دخول
قلبها ، ولو كان في ذلك إخلال بالمعرف وجرح لكبرياء زوج .

ليساحني الله وبمنحك من السعادة مثل ما منحتني .
 إنني أسمع صوته في تلك الليلة ، داكناً ، يعلو ويخفت ،
 ليس فيه حزن ولا ندم ، إن كان في الصوت شيء فقد كانت
 فيه رنة فرح . « وسمعتها تقول لي بصوت متضرع مستسلم :
 أحبك . فجاوب صوتها هتاف ضعيف في أعماق وعيي
 يدعوني أن أقف . لكن القمة صارت على بعد خطوة ،
 وبعد ذلك ألقط أنفاسي وأستجم . ونحن في قمة الألم عبرت
 برأسي سحائب ذكريات بعيدة قديمة كبخار يصعد من بحيرة
 مالحة وسط الصحراء . حين خطا زوجها إلى منصة الشهادة
 في المحكمة ، تعلقت به الأبصار . كان رجلاً نبيل الملامح
 والخطو ، رأسه الأشيب يكلله الوقار ، وتجلس على سمته مهابة
 لا مرأى فيها . كان رجلاً لو وضعت معه على ميزان ، فإن كفته
 ترجح كفتي أضعاف أضعاف . وكان شاهد دفاع لا اتهام .
 قال في الصمت الذي خيم على المحكمة : الانصاف يحتم علي أن
 أقول أن إيزابيلا زوجتي كانت تعلم بأنها مريضة بالسرطان .
 كانت في الآونة الأخيرة ، قبل موتها ، تعاني من حالات
 انقباض حادة . قبل موتها بأيام اعترفت لي بعلاقتها بالمتهم .
 قالت انها أحبته وانه لا حيلة لها . كانت طول حياتها معي
 مثال الزوجة الوفية المخلصة . وأنا بالرغم من كل شيء لا أحس
 بأي مرارة في نفسي ، لا نحوها ولا نحو المتهم . انني فقط
 أحس بحزن عميق لفقدائها .

لا يوجد عدل في الدنيا ولا اعتدال . وأنا أحس بالمرارة
 والحقد ، فبعد هؤلاء الضحايا جميعاً ، توج حياته بضحية

أخرى ، حسنه بنت محمود ، المرأة الوحيدة التي أحببتها ،
قتلت ود الرئيس المسكين وقتلت نفسها من أجل مصطفى
سميد . وقطعت ... يا للبشاعة . والتقطت صورة في إطار
من الجلد . هذه آن همد بلا شك ، بالرغم من انها تلبس عباءة
عربية وعقالا ، والإهداء أسفل الصورة بخط عربي مهتز :
« من جاريتك سوسن » وجه حي يتفجر صحة لا تكاد الصورة
تحتويه . في كل خد غمازان ، والشفتان ممتلئتان منفرجتان ، والعينان
تتوافدان بحب الاستطلاع . واضح كل هذا في الصورة على تقادم
العهد بها . « كانت عكسي تحن إلى مناخات استوائية ،
وشمس قاسية ، وآفاق أرجوانية . كنت في عينيها رمزاً
لكل هذا الحنين . وأنا جنوب يحن إلى الشمال والصقيع .
كانت تملك شقة في هامستد تطل على هامستد حيث تجيئها من
أكسفورد آخر الأسبوع . كنا نقضي ليلة السبت عندي وليلة
الأحد عندها . وأحياناً تمكث الاثنتين وأحياناً الأسبوع كله .
ثم أخذت تتفیب عن الجامعة شهراً وشهرين حتى فصلت .
كانت تدفن وجهها تحت إبطي وتستنشقي كأنها تستنشق
دخاناً مخدراً . وجهها يتقلص بالذلة . تقول كأنها تردد طقوساً
في معبد : « أحب عرقك . أريد رائحتك كاملة . رائحة
الأوراق المتعفنة في غابات افريقيا . رائحة المنجعة والباباي
والتوابل الإستوائية . رائحة الأمطار في صحارى بلاد
العرب » . كانت صيداً سهلاً . قابلتها أثر محاضرة ألقيتها في

أكسفورد عن أبي نواس . قلت لهم أن عمر الحيام لا يساوي
 شيئاً إلى جانب أبي نواس ، وقرأت لهم من شعر أبي النواس
 في الخمر بطريقة خطابية مضحكة ، زاعماً لهم أن تلك هي
 الطريقة التي كان الشعر العربي يلقي بها في العصر العباسي .
 وقلت في المحاضرة أن أبا نواس كان متصوفاً ، وإنه جعل من
 الخمر رمزاً حمله جميع أشواقه الروحية ، وإن توفقه إلى الخمر
 في شعره كان في الواقع توفقاً إلى الفناء في ذات الله .. كلام
 ملفق لا أساس له من الصحة ، لكنني كنت ملهماً في تلك
 الليلة ، أحس بالأكاذيب تتدفق على لساني كأنها معان سامية .
 وكنت أحس بالنشوة تسري مني إلى الجمهور ، فأمضي في
 الكذب . وبعد المحاضرة التقوا حولي . موظفون عملوا في
 الشرق ، ونساء طاعنات في السن مات أزواجهن في مصر
 والعراق والسودان ، ورجال حاربوا مع كتشنر واللبي ،
 ومستشرقون ، وموظفون في وزارة المستعمرات ، وموظفون
 في قسم الشرق الأوسط في وزارة الخارجية . وفجأة رأيت
 فتاة في الثامنة أو التاسعة عشرة تثب نحوي وثباً
 مخترقة الصفوف . وطوقتني بذراعيها وقبلتني وقالت
 باللغة العربية : أنت جميل تجل عن الوصف . وأنا
 أحبك جداً يجلي عن الوصف . قلت لها بعاطفة أخافتني حديثها :
 وأخيراً وجدتك يا سوسن . إنني أبحث عنك في كل مكان ،
 وخفت ألا أجدك أبداً . هل تذكرين ؟ قالت بعاطفة لا تقل

عن عاطفتي حدة : كيف أنسى دارنا في الكرخ في بغداد على
ضفة نهر دجلة أيام المأمون ؟ أنا أيضاً تقفيت أثرك عبر القرون
ولكنني كنت واثقة اذنا سنلتقي . وهائنتذا يا حبيبي مصطفى ،
لم تتغير منذ افترقنا . كأنني وهي على مسرح وحولنا ممثلون
يؤدون أدواراً صغيرة . أنا بطل وهي بطة . أطفئت الأنوار
وساد الظلام حولنا وبقينا أنا وهي وحدنا وسط المسرح
ينصب علينا ضوء وحيد . ورغم إدراكي انني أكذب ، فقد
كنت أحس انني بطريقة ما أعني ما أقول ، وانها هي أيضاً
رغم كذبتها فان ما قالته هو الحقيقة . كانت تلك لحظة من
لحظات النشوة النادرة التي أبسغ بها عمري كله . لحظة تتحول
فيها الأكاذيب أمام عينك إلى حقائق ، ويصير التاريخ قواداً ،
ويتحول المهرج إلى سلطان . وفي غمرة الحلم ذاك حملتني
بسيارتها إلى لندن . كانت تسوق بسرعة رهيبة ، وبين الحين
والحين تترك عجلة القيادة وتطوقني بذراعيها وتصرخ : ما
أسعدني إذ وجدتك أخيراً . انني سعيدة سعادة لومت في
هذه اللحظة فأنني لمن أباي . وكنا نقف على الحانات في
الطريق ، ونشرب خمر التفاح أحياناً والبيرة أحياناً ، والنبيذ
الأحمر والنبيذ الأبيض ، وأحياناً نشرب الوسكي . ومع كل
كأس أقرأ لها من شعر أبي نواس . قرأت لها :

أما يسرك أن الأرض زهراء والخمر ممكنة شمطاء عذراء

ما في قعودك عذر عن معتقة كالليل والذها والأم خضراء
بأدر فإن جناح الكرخ مونقة لم تلتقفها يد للحرب عسراء

وقرأت لها :

وكأس كمصباح السماء شربتها على قبلة أو موعد للقاء
أنت دونها الأيام حتى كأنها تساقط نور من فتوق سماء

وقرأت لها :

إذا عبأ أبو الهيجاء للهيجاء فرسانا
وسارت راية الموت أمام الشيخ اعلنا
وشبت حربها واشتعلت تلهب نيرانا
جعلنا القوس أبدينا ونبل القوس سوسانا
فعادت حربنا انسا وعدنا نحن خلانا
إذا ما ضربوا الطبل ضربنا نحن عيدانا
لفتيان يرون القتل في المدة قربانا
ومنشا حربنا ساق سبا خمرنا فسقانا
يحس الكأمن كي تلحق اخرانا بأولانا
تري هناك مصروعا وذا بنجر سكرانا
فهذي الحرب لا حرب تغم الناس عدوانا
بها نقتلهم ثم بها ننشر قتلتانا

نحن هكذا وهي تطرب للشعر وتطرب للشراب ، تسفيني
لذاذات الأكاذيب العذبة وانسج لها خيوطا دقيقة مربعة من
الأوهام . تقول لي انها ترى في عيني لمح السراب في الصحاري
الحارة . وتسمع في صوتي صرخات الوحوش الكاسرة في
الغابات ، وأقول لها انني أرى في زرقة عينيهما بحور الشمال البعيدة
التي ليس لها سواحل . وفي لندن أدخلتها بيتي ، وكر
الأكاذيب الفادحة ، التي بنيتها عن عمد ، اكذوبة اكذوبة .
الصندل والند وريش النعام وقماثيل العاج والأبنوس والصور
والرسوم لغابات النخل على شطآن النيل ، وقوارب على
صفحة الماء أسرعتها كأجنحة الحمام ، وشموس تغرب على
جبال البحر الأحمر ، وقوافل من الجمال تحب السير على كثران
الرمل على حدود اليمن ، أشجار التبليدي في كردفان ، وفتيات
عاريات من قبائل الزاندي والنوير والشلك ، حقول الموز
والبن في خط الإستواء ، والمعابد القديمة في منطقة النوبة ،
الكتب العربية المزخرفة لأغلفة مكتوبة بالخط الكوفي المنمق
الساجيد العجمية والستائر الوردية ، والمرايا الكبيرة على
الجدران ، والأضواء الملونة في الأركان . ركعت وقبلت
قدمي وقالت : انت مصطفى مولاي وسيدي وأنا سوسن
جاريتك . هكذا كل واحد منا اختار دوره في صمت ، هي
تمثل دور الجارية وأنا أمثل دور السيد . حضرت الحمام ثم
غسلتني بالماء الذي صبت فيه ماء الورد . أوقدت عيدان

الند ، وأوقدت الصندل في بحمر النحاس المغربي المعلق في المدخل . لبست عباءة وعقالاً وتمددت أنا على السرير فجاءت ودلكت صدري وساقى ورقبتي وكتفي . قلت لها بصوت آمر : تعالي ، فأجابتنى بصوت خفيض : سمعا وطاعة يا مولاي . في غمرة الوهم والسكر والجنون أخذتها فقبلت لأن الذي قد كان بيننا كان منذ ألف عام . وجدوها في شقتها في هامستد مية انتحاراً بالغاز ورسالة تقول فيها : مستر سعيد لعنة الله عليك »

وضعت صورة آن همند في مكانها إلى يسار صورة مصطفى سعيد وهو يقف بين مسز روبنسن وزوجها . الاهداء في أسفل الصورة : « الى موزي العزيز - القاهرة ١٧/٤/١٩١٣ » يبدو انها كانت تدلله بهذا الاسم ، فهي في رسالتها أيضاً تشير إليه باسم « موزي » . مصطفى سعيد يبدو مجرد طفل ، ولكن وجهه عابس في الصورة . مسز روبنسن تقف إلى يساره وتضع ذراعها حول كتفه وزوجها يطوقها الاثنان بذراعه وهو وزوجته يتسلمان ابتسامة طبيعية سعيدة . وجهاهما وجهها شابين لم يصلا الثلاثين . رغم كل شيء فان حب مسز روبنسن له لم يتزعزع . انها حضرت المحاكمة من أولها إلى آخرها ، وسمعت كل شيء ، ومع ذلك فانها تقول في رسالتها إلي : « لا أستطيع أن أعبر لك عن مدى امتناني لأنك كتبت لي عن موزي العزيز . لقد كان موزي أعز

شخص بالنسبة لي ولزوجي . مسكين موزي . انه كان طفلاً معذباً . ولكنه أدخل على قلبي وقلب زوجي سعادة لا حد لها . بعد تلك المسألة المؤلمة وتركه لندن ، انقطعت اخباره عني ، وقد حاولت جهدي أن أعيد الاتصال به ولكنني لم أفلح . مسكين موزي ، ولكن ما يخفف عني قليلاً ألم فقدته أن أعلم أنه قضى السنوات الأخيرة من حياته سعيداً بينكم وأنه تزوج زوجة طيبة وأنجب ولدين . بلغ حبي لمسز سعيد . أنها تستطيع أن تعتبرني أما . وإذا كان ثمة عمل أستطيع أن أؤديه لها وللطفلين العزيزين فقل لها . لا تتردد في الكتابة إلي . وكم أكون سعيدة لو أنهم جميعاً جاءوا وقضوا معي عطلة الصيف القادم . انني أعيش هنا وحيدة في آيل أف وايت . وقد سافرت إلى القاهرة في يناير الماضي وزرت قبر زوجي . كان ركي يحب القاهرة حباً عظيماً وقد شاء القدر أن يدفن في المدينة التي أحبها أكثر من أي مدينة أخرى في العالم .

« انني أشغل نفسي بتأليف كتاب عن حياتنا - ركي وموزي وأنا - كنا رجلين عظيمين ، كل بطريقته . كانت عظمة ركي في قدرته على جلب السعادة للآخرين . كان سعيداً بمعنى الكلمة ، تفيض السعادة منه إلى كل من يتصل به . وكان لموزي عقل عبقرى ، ولكنه كان متهوراً . كان غير قادر على تقبل السعادة أو اعطاها ، إلا لمن أحبهم

وأحبوه حباً حقيقياً مثلي ومثل ركي . وأنا أحسن أن
الحب والواجب يحتم علي أن أعرف الناس بقصة هذين
الرجلين العظيمين سيكون الكتاب في الواقع عن ركي
وموزي ، فأنا لم أفعل شيئاً يستحق الذكر . سأكتب عن
الخدمات الجليلة التي أداها ركي للثقافة العربية ،
مثل اكتشافه لكثير من المخطوطات النادرة ومزجها
والإشراف على طبعها . وسأكتب عن الدور العظيم الذي لعبه
موزي في لفت الأنظار هذا إلى البؤس الذي يعيش فيه أبناء
قومه تحت وصايتنا كمستعمرين . وسأكتب بالتفصيل عن
المحاكمة وأزيل ما علق باسمه من غبار . انني أكون شاكرة
إذا أرسلت لي أي شيء خلفه موزي قد يعينني على كتابة
هذا الكتاب . ولعل موزي أخبرك انه جعلني وصية على
شئونه في لندن . وقد تجمع شيء من المال من حقوق الطبع
لبعض كتبه وترجمة بعضها سأحولها فوراً حين تخبرني بعنوان
البنك الذي تريدني أن أحولها له . وبهذه المناسبة أسمح لي
أن أشكرك شكراً عظيماً على الإشراف على عائلة موزي
العزیز . أرجو أن تراسلني بانتظام وتكتب لي عن أخبارهم
بالتفصيل وأن ترسل لي صورتهم في رسالتك القادمة .

« نخلصتك الزابيث »

وضعت الرسالة في جيبى وجلست على الكرسي إلى يمين

المدفأة . وقع بصري على عدد من صحيفة « التايمز » بتاريخ
الاثنين ٢٦ - ٩ - ١٩٢٧ . المواليذ ، الزيحات ، الوفيات .
وقع مراسيم الزواج القسيس سامسن ماجستير في الآداب .
تقام مراسيم الجنازة في كنيسة ستنتي الساعة الثانية بعد الظهر ،
الأربعاء . الرسائل الشخصية . أيتها المحبوبة دائماً ، إلى متى
نظل مفترقين ؟ - القلب العزيز . مستعمرة كينيا -
مستر ... مساح قانوني - يعود إلى نيروبي في الخامس من
أكتوبر ، حتى ذلك التاريخ أية مراسلات تتعلق بتقارير عن
عقارات في المستعمرة ، يجب أن ترسل بواسطة ... اعلانات
عن دروس في ركوب الخيل . قطط سيامية زرقاء للبيع .
فتاة (١٧ سنة) مهذبة ، من عائلة محترمة ، تبحث عن عمل .
سيدة ورثت لقب ليدي (٣٠ سنة) ترغب في وظيفة في
الخارج . أخبار الرياضة . وست هل يهزم بير هل .
وست هام يفوز . جين تفي يغلب جاك دمبسي . رسالة من
ظفر الله خان يفند فيها آراء سير شمانلال ستالفاد بشأن النزاع
بين المسلمين والهندوك في البنجاب . رسالة تقول : « الجاز
موسيقى مرحة في عالم مظلم » . فيلان وصلا من رانغون
أمس ، وسارا على الأقدام من مرسي تلبري إلى حديقة الحيوان .
مربي أبقار هجم عليه ثور في مزرعته وبقر بطنه . رجل
سرق أربع موزات حكم عليه بالسجن ثلاث سنوات .
الأخبار الامبراطورية والخارجية . عرض جديد من موسكو

للسيد الدين الروسي لفرنسا . فيضانات في سويسرا .
 الدسكفري سفينة كابتن سككت عادت من البحار الجنوبية .
 هر سترسمان ألقى خطاباً عن نزع السلاح في جنيف يوم السبت .
 وأيضاً أدلى هر سترسمان بتصريح لصحيفة « ماثان » أيد فيه
 خطاب الرئيس فون هندنبرغ في تانبرج الذي رفض فيه أن
 ألمانيا مسئولة عن نشوب الحرب . المقالة الافتتاحية عن
 معاهدة جدة التي وقعها سير غلبرت كلين بالنيابة عن بريطانيا
 العظمى والأمير فيصل عبد العزيز آل سعود نيابة عن أبيه
 ملك الحجاز ونجد ومحبياتها . الحالة الجوية في انكلترا وويلز ،
 الرياح في الغالب بين الغربي والشمالي الغربي ، قوية أحياناً في
 الأماكن المكشوفة ، فترات طويلة من الهدوء ولكن مع
 فترات من العواصف الممطرة وأحياناً أمطار محلية .

انها الصحيفة الوحيدة فيما يبدو . هل وجودها هنا له أي
 مدلول ؟ أم انها محض الصدفة ؟ وفتحت كراسة وقرأت على
 الصفحة الأولى : « قصة حياتي - بقلم مصطفى سعيد » .
 وفي الصفحة التالية الإهداء : « إلى الذين يرون بعين واحدة
 ويتكلمون بلسان واحد ويرون الأشياء اما سوداء أو بيضاء ،
 اما شرقية أو غربية » . وقلبت بقية الصفحات فلم أجد شيئاً ،
 ولا سطوراً واحداً ولا كلمة واحدة . هل هذا أيضاً له
 مدلول أم انه صدفة محضة ؟ وفتحت ملفاً فوجدت أوراقاً
 كثيرة ومكتشات ورسومات . كان إذن يعالج الرسم

والكتابة الرسوم جيدة تم عن موهبة . رسوم بالألوان
لناظر في الريف الانكليزي تتكرر فيها أشجار البلوط
والغدران والاوز . وسكتشات بالقلم الرصاص لناظر وأشخاص
من قريتنا . بالرغم من كل شيء لا يسعني إلا أن أعترف
بهارته الفائقة . بكري وبحبوب وجدي وود الريس وحسنة
وعمي عبد الكريم وغيرهم . وجوهم تظالفي بتعبيرات عميقة
طالما أحسستها ولكنني لم أكن قادراً على تحديدها .
وقد رسمهم مصطفى سعيد بوضوح رؤية وبمطف يقرب من
الحب . ووجه ود الريس يتردد أكثر من الباقين . ثمانية رسوم
لود الريس في تعابير مختلفة . لماذا اهتم بود الريس كل هذا
الاهتمام ؟

ونظرت في قصاصات الورق وقرأت : « نعلم الناس لنفتح
أذهانهم ونطلق طاقاتهم المحبوسة . ولكننا لا نستطيع أن
نتنبأ بالنتيجة - الحرية . نحرر العقول من الخرافات .
نعطي الشعب مفاتيح المستقبل ليتصرف فيه كما يشاء » .
« تركت لندن وقد بدأت أوروبا تحشد جيوشها مرة أخرى
لعنف أكثر ضراوة » . « لم تكن كراهية . كان حباً عجز
أن يعبر عن نفسه . أحببتها بطريقة معوجة . وهي أيضاً » .
« أسقف البيوت بللها رذاذ المطر . البقر والضأن في الحقول
وكأنها حصوات بيضاء وسوداء . البلب الخفيف في شهر يونيو .
اسمحي لي يا سيدتي . هذه الرحلات بالقطار مملة . كيف

حالك ؟ من برمنغهام . إلى لندن . كيف تصف المناظر ؟
شجر وحشائش . أكوام القش اليابس وسط الحقول .
الأشجار والحشائش هي هي في كل مكان . كتاب لنغايو
مارش . ترددت . لم تقل لا أو نعم . هل كان يصف
حوادث حقيقية أم انه كان يعالج قصة ؟ « انني يا مولاي
يجب أن أعترض على لجوء الاتهام إلى حيلة منطقية مكشوفة .
ذلك انه يريد أن يؤكد مسؤولية المتهم في حوادث لم يكن
مسئولاً عنها ، بناء على عمل حدث فعلاً ، ثم يعود ويؤكد
افتراضه فيما حدث فعلاً بناء على الافتراضات السابقة .
ان المتهم معترف بأنه قتل زوجته ولكن هذا لا يجعله مسؤولاً
عن جميع حوادث انتحار النساء اللاتي انتحرن في الجزر
البريطانية في خلال السنوات العشر الأخيرة . » من ولد الخير
ولد له فراخاً تطير بالسرور . ومن ولد الشر أنبت له شجراً
أشواكه الحسرة وثمره الندم . فرحم الله امرءاً أغضى عن
الأخطاء واستمتع بالظاهر . »

ووجدت قصيدة بخط يده . إذن كان يعالج الشعر أيضاً ،
وواضح من كثرة ما شطب فيها وبديل وغير في كلماتها انه هو
الآخر كان يحس برهبة أمام الفن . ها هي ذي :

عربدت في الصدر آهات الحزين
ودموع القلب فاضت من تباريح السنين
ورياح عصفت بالحب والحدق الدفين

وبقايا صلوات ضمها الصمت العميق
هينات ودعاء ونواح وزعيق
وغبار ودخان غم للساري الطريق
ونفوس مطمئنت وأخرى هلعة
وجباه صاغرات وأخرى . . .

ولا بد ان مصطفى سعيد قضى ساعات طويلة يبحث عن
الكلمة التي يستقيم بها الوزن . استهوطني المعضلة ففكرت بضع
دقائق . ولم يطل تفكيري . انها قصيدة ركيكة على اي حال
قائمة على الطباق والمقارنات . ليس فيها احساس صادق ولا
انفعال حقيقي . وهذا البيت ليس أسوأ من بقية الابيات .
شطب البيت الاخير وكتبت محله :

« وخدود صاغرات وجباه خاشعة » .

ومضيت في تقليب الاوراق فوجدت ارقاماً وقصاصات
ورق فيها عبارات مثل : « ثلاثة براميل زيت » ، « تناقش
اللجنة موضوع تقوية قاعدة المكنة » ، « فائض الاسمنت يمكن
بيعه فوراً » . ثم وجدت هذه الفقرة : « وقد كان حتماً ان
يصطدم طالمي بطالمها وان اقضي في السجن اعواماً واضرب
في الارض اعواماً » اطارد خيالها ويطاردني . وذلك هو
الاحساس بأنني في لحظة خارج حدود الزمن قد ضاغت الهة
الموت واطللت من كوة عينيها على الجحيم . انه شعور لا يمكن

لإنسان أن يتصوره . وقد ظل مذاق تلك الليلة في فمي يعني
من أي مذاق سواه .

سُمت قراءة الاوراق . لا شك أن ثمة اوراقاً كثيرة
اخرى دفينة في هذه الغرفة ، كاجزاء في لغز حسابي ، يريد
مصطفى سعيد مني أن أكتشفها وأضعها جنباً الى جنب ،
وأخرج منها صورة متكاملة تكون في صالحه . انه يريد أن
يكتشف كآثر تاريخي له قيمته . لا شك في ذلك . وأنا أعلم
الآن انه اختارني أنا لهذا الدور . لم تكن صدفة انه أثار حب
الاستطلاع عندي ، ثم قص علي قصة حياته غير كاملة لكي
اكتشف أنا بقية القصة . لم تكن صدفة أنه ترك لي رسالة
مختومة بالشمع الاحمر ، أمعانا منه في شحذ خيالي ، وانه
جعلني وصياً على ولديه ليلزميني الزاماً لا فكاك منه ، وانه
ترك لي مفتاح متحف الشمع هذا . لا حد لاذنيتي وغروره ،
فهو رغم كل شيء يريد أن يخلده التاريخ . انما أنا لا أملك
متسعاً من الوقت للمضي في هذه المهزلة . يجب أن انهي هذه
المهزلة قبل طلوع الفجر ، والساعة الآن جاوزت الثانية صباحاً
عند طلوع الفجر ستأكل السنة النار كل هذه الاكاذيب .

هبت واقفاً ، ورفعت ضوء الشموع على اللوحة الزيتية
على رف المدفأة . كل شيء في الغرفة منظم مرتب موضوع في
مكانه . الا صورة جين مورس . كأنه لم يدر ماذا يفعل بها .
كل النساء الأخريات احتفظ بصورهن الفوتوغرافية ، ولكن

جين مورس هذه كما رآها هو لا كما رأتها آلة التصوير . نظرت الى اللوحة باعجاب . وجه مستطيل لامرأة واسعة العينين حاجباها ينمقدان فوقها . الانف يميل الى الكبر والفم يميل الى الاتساع والتعبير على الوجه شيء يصعب وصفه في كلمات . تعبير رهيب ، محير . الشفتان الرقيقتان مطبقتان كأنها تعض أسنانها والفك مائل الى الامام بكبرياء . هل التعبير في العينين غضب أم ابتسام ؟ وثمة شيء شهواني يرف على الوجه كله . هذه اذن هي العنقاء التي افترست الغول ؟ كان صوته في تلك الليلة جريحا حزينا نادما . ألا نه فقدنا ؟ أم لانها جرعت المهانات ؟ .

« كنت اجدها في كل حفل أذهب اليه . كأنها تعتمد أن تكون حيث أكون لتهينني . أردت أن أراقصها فقالت لي : لا أرقص معك ولو كنت الرجل الوحيد في العالم . صفعتها على خدها فركلتني بساقها وعضتني في ذراعي بأسنان كأنها أسنان لبوة . لم تكن تعمل عملا ولا اعلم كيف كانت تعيش . أهلها من ليدز ، لم اقابلهم حتى بعد زواجي بها . كان ابوها تاجرا لا ادري في اية بضاعة ، وكان لها ، حسب قولها ، خمسة أخوة وكانت هي البنت الوحيدة . كانت تكذب حتى في ابسط الاشياء . تعود الى البيت بقصص غريبة عن أشياء حدثت لها واناس قابلتهم لا يمكن أن يصدقها العقل . ولا استبعد انها كانت عديمة الأهل ، كأنها شهرزاد متسولة .

ولكنها كانت مفرطة في الذكاء ومفرطة في الظرف حين
تشاء ، يحيط بها حيث تكون لفيف من المعجبين يرفون حولها
كالذباب . وكنت أحس احساساً داخلياً انها رغم تظاهرها
بكرهاتي ، كانت مهتمة بأمرى ، حين يجمعني واياها مجلس
تراقبني بطرف عينها ، وتحصي جميع حركاتي وسكناتي ، واذا
رأت مني اهتماماً بفتاة ما سارعت الى اساءتها والقسوة عليها
كانت ماجنة بالقول والفعل ، لا تتورع عن فعل اي شيء ،
تسرق وتكذب وتغش ، ولكنني رغم ارادتي أحببتها ولم
أعد استطيع ان اسيطر على مجرى الاحداث . كانت حين
اتجنبها تغريني وحين اطاردها تهرب مني . كبرت مرة جماع
نفسي وتجنبتها أسبوعين . اخذت ابتعد عن الاماكن التي
ترتادها واذا دعيت الى حفل اناكد انها لن تكون موجودة
فيه . ولكنها وجدت طريقها الى بيتي فجاءتني آخر ليلة
سبت وآن همد معي . شتمت آن همد شتائم مقذعة فانتهرتها
وضربتها فلم ترتدع . خرجت آن همد باكية وظلت واقفة
امامي كشيطان رجم ، في عينيها تحد ونداء أثار أشواقاً
بعيدة في قلبي . لم أكلمها ولم تكلمني ولكنها خلعت ثيابها
ووقفت امامي عارية . نيران الجحيم كالمها تأججت في صدري
كان لا بد من اطفاء النار في جبل الثلج المعترض طريقي .
تقدمت نحوها مرتعش الاوصال ، فأشارت الى زهرية ثمينة من
الموجودة على الرف . قالت : تعطيني هذه وتأخذني . لو طلبت

مني حياتي في تلك اللحظة ثمناً لقايضتها أياها . أشرت برأسي
 موافقاً . أخذت الزهرية وهشمتها على الأرض واخذت قدوس
 الشطايا بقدميها حتى حولتها الى فئات . أشارت الى مخطوط
 عربي نادر على المنضدة . قالت : تعطيني هذا أيضاً . حلقي
 جاف . انا ظمآن يكاد يقتلني الظمأ . لا بد من جرعة ماء
 مثلجة . أشرت برأسي موافقاً . اخذت المخطوط القديم النادر
 ومزقته وملأت فيها بقطع الورق ومضغتها وبصقتها . كأنها
 مضغت كبدي ، ولكنني لا ابالي . أشارت الى مصلاة من
 حرير أصفهان أهدتني اياها مسز روبنسن عند رحيلي من
 القاهرة . أثن شيء عندي وأعز هدية على قلبي . قالت :
 تعطيني هذه أيضاً ثم تأخذني . ترددت برهة ولكنني نظرت
 اليها منتصبه متحفزة أمامي ، عيناها تلمعان ببريق الخطر
 وشفقتها مثل فاكهة محرمة لا بد من أكلها . وهزرت رأسي
 موافقاً ، فأخذت المصلاة ورمتها في نار المدفأة ووقفت تنظر
 متلذذة الى النار تلتهمها فانعكست السنة النار على وجهها .
 هذه المرأة هي طلبتني وسألاحقها حتى الجحيم . مشيت اليها
 ووضعت ذراعي حول خصرها وملت عليها لاقبلها . وفجأة
 أحسست بركلة عنيفة بركبتيها بين فخذي . ولما افقت من
 غيبوبي وجدتها قد اختفت .

« لبثت اطاردها ثلاثة أعوام ، قوافلي ظمأى والسراب
 يلعب امامي في متاهة الشوق . وذات يوم قالت لي : انت ثور

متوحش لا يفتر من الطراد . انني تعبت من مطاردتك لي ومن
جربي أمامك . تزوجني . تزوجتها في مكتب التسجيل في
فولام . لم يحضر العقد غير صديقة لها وصديق لي . حين قالت
امام المسجل : انا جين ونفرد مورس أقبل هذا الرجل مصطفى
سعيد عثمان زوجي الشرعي في السراء والضراء في الفقر والغنى
في الصحة والمرض - فجأة أجهشت بالبكاء وأخذت تبكي
بحرقة . دهشت انا لهذه العاطفة منها وكف المسجل عن
اجراء المراسم وقال لها بعطف : هوني عليك . أنا أقدر
شعورك . ما هي اللحظات وينتهي كل شيء . وظلت بعد
ذلك تنهه بالبكاء ، ولما انتهى العقد أجهشت بالبكاء مرة
اخرى . وجاء المسجل وربت على كتفها ثم صافحني قائلاً :
زوجتك تبكي من شدة السعادة . انني رأيت نساء كثيرات
يبكين في زواجهن ولكنني لم أر بكاء بهذه الحرقه .
يبدو انها تحبك حباً عظيماً . اعتن بها . أنا متأكد ستكونان
سعيدين . وظلت تبكي الى ان خرجنا من مكتب التسجيل .
وفجأة انقلب بكاؤها الى ضحك قالت وهي تقهقه بالضحك :
يا لها من مهزلة .

(وقضينا بقية اليوم في سكر . لا حفل ولا مدعويين ،
أنا وهي والخمر . ولما ضمنا الفراش ليلا أردتهما فأدارت لي
ظهرها وقالت : ليس الآن . أنا متعبة . وظلت شهرين لا
تدعني أقربها ، كل ليلة تقول : أنا متعبة . أو تقول : أنا

مريضة . لم اعد احتمل اكثر مما احتملت . وقفت فوقها ذات
 ليلة والسكين في يدي . قلت لها : سأقتلك . نظرت الى
 السكين نظرة بدت لي كأن فيها لهفة ، وقالت : ها هو
 صدري مكشوف امامك اغرس السكين في صدري . نظرت
 الى جسمها العاري في متناول يدي ولا أناله . جلست على
 حافة السرير ونكست رأسي بذلة . وضعت يدها على خدي
 وقالت بلمحة لم تخل من رقة : انت يا حلوي لست من طينة
 الرجال الذين يقتلون . أحسست بالذلة والوحدة والضياح .
 وفجأة تذكرت أمي . رأيت وجهها واضحاً في تخيلتي وسمعتها
 تقول لي : انها حياتك وانت حر فيها . وتذكرت نبأ وفاة
 امي حين وصلني قبل تسعة اشهر ، وجدوني سكران في
 أحضان امرأة . لا أذكر الآن أية امرأة كانت . ولكنني
 تذكرت بوضوح انني لم أشعر بأي حزن ، كأن الأمر لا يعني
 في كثير ولا قليل . تذكرت هذا وبكيت من أعماق قلبي .
 بكيت حتى ظننت انني لن أكف عن البكاء أبداً . وأحسست
 حين تطوقني بذراعيها وتقول كلاماً لم أميزه ولكن صوتها
 وقع على أذني وقعاً منفراً اقشعر له بدني . دفعته عني بعنف
 وصرخت فيها : أنا أكرهك . أقسم انني سأقتلك يوماً ما .
 وفي غمرة حزني لم يغب عني التعبير في عينيها . تألقت عيناها
 ونظرت إلي نظرة غريبة . هل هي دهشة ؟ هل هي خوف ؟

هل هي رغبة ؟ ثم قالت بصوت فيه مناغاة مصطنعة : أنا
أيضاً أكرهك حتى الموت .

« ولكن لم تكن لي حيلة . كنت صياداً فأصبحت
فريسة . وكنت أتعذب وبطريقة لم أفهمها كنت أستعذب
هذابي . بعد ذلك الحادث بأحد عشر يوماً تماماً ، أذكرها
لأنني تجرعت غصصها كما يتجرع الصائم غصص شهر صوم
قائظ ، كنا في حديقة رتشمند قبيل الغروب . لم تكن
الحديقة خالية تماماً من الناس . كنا نسمع الأصوات ونرى
أشخاصاً يتحركون في ضوء الشفق . لم نتحدث إلا قليلاً ولم
فنبادل عبارات حب ولا غزل . دون سبب وضعت ذراعيها
حول عنقي وقبلتني قبلة طويلة . أحسست بصدرها يضغط
على صدري . وضعت ذراعي حول خصرها وجذبته إلي فتأوهت
آهات مزقت نياط قلبي وأنستني كل شيء . لم أعد أذكر شيئاً .
لم أعد أرى أو أعي إلا هذه المصيبة الفادحة التي رماني بها القدر .
هذه المرأة هي قدرتي وفيها هلاكي ، ولكن الدنيا كلها لا
تساوي عندي حبة خردل في سبيلها . أنا الغازي الذي جاء
من الجنوب ، وهذا هو ميدان المعركة الجليدي الذي لن أعود
منه ناجياً . أنا الملاح القرصان وجين مورس هي ساحل
الهلاك . ولكنني لا أبالي . أخذتها هنالك في العراء ، لا يهمني
إن كان ذلك على مرأى ومسمع من الناس . هذه اللحظة من
النشوة تساوي عندي العمر كله .

« وقد كانت لحظات الفشوة نادرة بالفعل ، وبقية الوقت
نقضيه في حرب ضروس لا هوادة فيها ولا رحمة . كانت
الحرب تنتهي بهزيمتي دائماً . أصفعها فتصفعني وتنشب أظافرها
في وجهي ويتفجر في كيانها بركان من العنف فتكسر كل ما
سأله يدها من أوان وتمزق الكتب والأوراق . كان هذا أخطر
سلاح عندها . كل معركة تنتهي بتمزيق كتاب مهم أو حرق
بحث أضعت فيه أسابيع كاملة . وأحياناً يستبد بي الغضب
حتى أبلغ حافة الجنون والقتل ، فأشدد قبضتي على عنقها
فتسكن فجأة وتنظر إلي تلك النظرة المهمة ، الحليط من
الدهشة والخوف والرغبة . لو انني ضغطت قيد أنملة أكثر مما
ضغطت لوضعت حداً للحرب . وكانت الحرب تنتقل معنا
إلى الخارج . ونحس في حانة صرخت فجأة : ابن العاهرة
بغازلني . وثبت على الرجل وأخذت بخنقه وأخذ بخناق
والشعاع علينا الناس ، وفجأة سمعنا تفعقه بالضحك وراء
ظهري . وقال لي أحد الرجال الذين جاءوا يفصلون بيننا :
يؤسفني أن أقول لك أن هذه المرأة إذا كانت زوجتك فأنك
متزوج من مومس . هذا الرجل لم يكلمها بكلمة . يبدو أن
هذه المرأة تحب منظر العنف . وتحول غضبي اليها ، فذهبت
اليها وهي ماتزال تفعقه فصفعتها فأنشبت أظافرها في وجهي .
ولم أستطع جر جرتي إلى البيت إلا بعد مجهود وألم عظيمين .

« وكان يحلو لها أن تغازل كل من هب ودب حين نخرج
معاً . كانت تغازل غرسونات المطاعم وسواقى الباصات
وعابري السبيل وكان بعضهم يتشجع ويستجيب ويرد بعضهم
بعبارات بذينة فأتشاجر مع الناس وأضربها وتضربني في
عرض الطريق . وما أكثر ما سألت نفسي ما الذي يربطني
بها . لماذا لا أتركها وأنجو بنفسي ؟ ولكنني كنت أعلم أن
لا حيلة لي وإن لا مفر من وقوع المأساة . وكنت أعلم أنها
تخونني . كان البيت كله يفوح بريح الخيانة . وجدت مرة
مندبل رجل ، لم يكن منديلي . سألتها فقالت : انه منديلك .
قلت لها : هذا المندبل ليس منديلي ، قالت : هبه ليس
منديلك . ماذا أنت فاعل ؟ ومرة وجدت علبة سجاثر ومرة
وجدت قلم حبر ، قلت لها : انت تخونينني . قالت : افرض
انني اخونك . صرخت فيها : اقسم انني سأقتلك . ابتسمت
ساخرة وقالت : انت فقط تقول هذا . ما الذي يمنعك من
قتلي ؟ ماذا تنتظر ؟ لعلك تنتظر حتى تجدد رجلاً فوقى ..
وحتى حينئذ لا اظنك تفعل شيئاً . ستجلس على السرير
وتبكي .

« ذات مساء داكن في شهر فبراير . درجة الحرارة عشر
درجات تحت الصفر . المساء مثل الصباح ، مثل الليل داكن
مكفهر ، لم تشرق الشمس طيلة اثنين وعشرين يوماً . المدينة
كلها حقل جليد ، الجليد في الشوارع في الحدائق عندمداخل

البيوت . الماء تجمد في انابيبيه والنفس يخرج بخاراً من الافواه .
الاشجار عالية تنوم اغصانها تحت وطأة الثلج . وانا دمي يغلي
وفي رأسي حمى . في ليلة مثل هذه تحدث الاعمال الجسيمة .
هذه ليلة الحساب . مشيت من المحطة الى الدار احمل المعطف
على ساعدي ، جسمي ساخن والعرق يتصبب من جبهتي . كان
الجليد يقرقع تحت حذائي وانا أطلب البرد . اين البرد ؟
وجدتها عارية مستلقية على السرير ، فخذها بيضاوان
مفتوحتان ، ابتسامتها مفعمة وعلى وجهها شيء مثل الحزن ،
في حالة تأهب عظيم للاخذ والعطاء . حن قلبي اليها اول ما
رايتها ، واحسست بالدفع الشيطاني تحت الحجاب الحاجز .
حين احسسه اعلم انني مسيطر على زمام الموقف . اين كان هذا
الدفع كل هذه الاعوام ؟ قلت لها بصوت واثق كدت انساه
من طول ما فقدته : هل كان معك أحد ؟ أجابتنني بصوت
أثر فيه وقع صوتي : لم يكن معي أحد . هذه الليلة لك انت
وحدك . انا انتظرك منذ وقت طويل .

« احسست انها تصدقني لأول مرة . هذه الليلة ليلة
الصدق والمأسة . اخرجت السكين من غمده . جلست على
حافة السرير وقتاً انظر اليها . كنت ارى وقع نظراتها حياً
ملوساً على وجهها . نظرت في عينيها فنظرت في عيني
وتماسكت نظراتنا واشتبكت ، فكأننا فلكان في السماء
اشتبكنا في ساعة نحس . وطففت نظراتي عليها فحولت وجهها

عني ، ولكن الاثر ظهر في وسطها فزحزحته يمنة ويسرة
ورفعته قليلا عن السرير ثم استقرت به ورمت ذراعيها في
تراخ . وعادت تنظر الى نظرت الى صدرها ، فنظرت هي
ايضا الى حيث وقع بصري على صدرها كأنها أصبحت
مسلوبة الارادة تتحرك حسب مشيئتي . نظرت الى بطنها
فتابعني وبدأ الم خفيف على وجهها .. كنت ابطيء فتبطنيء
وأعجل فتعجل . أطلت النظر الى فخذيها البيضاوين المفتوحتين ،
ادلکها بعيني وينزلق نظري على السطح الناعم الاملس الى
ان يستقر هنالك في مستودع الاسرار ، حيث يولد الخير
والشر . ورأيت وجهها تعلوه حمرة ، وجفنيها ينكسران
كأنها أصبحت غير قادرة على السيطرة عليها . رفعت الخنجر
ببطء فتابعته حده بعينيها . واتسعت حدقتا العيين فجأة
واضاء وجهها بنور خاطف كأنه لمع برق . لبثت تنظر الى
حد الخنجر بخليط من الدهشة والخوف والشبق . ثم امسكت
الخنجر وقبلته بلهفة . وفجأة اغمضت عينيها وتمطت في السرير
رافعة وسطها قليلا فاتحة فخذيها اكثر . وتأوهت وقالت :
ارجوك يا حلوي هيا . انا مستعدة الآن . لم استجب لندائها
فتأوهت آهة اكثر الماء . وانتظرت . بكمت . خرج صوتها
خافتا لا يكاد يسمع : أرجوك يا حبيبي .

« ها هي ذي سفني يا حبيبي تبهر نحو شواطئ الهلاك .
ملت عليها وقبلتها . وضعت حد الخنجر بين نهديها ، وشبكت

هي : جليها حول ظهري . ضغطت ببطء . ببطء . فتحت
عينها . اي نشوة في هذه العيون . وبدت لي اجمل من كل
شيء في الوجود . قالت بآلم : يا حبيبي . ظننت انك ان
تفعل هذا ابداً . كدت اياأس منك . وضغطت الخنجر
بصدري حتى غاب كله في صدرها بين النهدين . واحسست
بدمها الحار يتفجر من صدرها . واخذت ادعك صدرها
بصدري وهي تصرخ متوسلة : تعال معي . تعال . لاتدعني
اذهب وحدي .

« وقالت لي : احبك - فصدفتها . وقلت لها : احبك
وكنت صادقاً . ونحن شعلة من اللهب ، حواف الفراش السنة
من نيران الجحيم ورائحة الدخان اشمه بانفي وهي تقول لي :
احبك يا حبيبي ، وانا اقول لها احبك يا حبيبي . والكون
بماضيه وحاضره ومستقبله اجتمع في نقطة واحدة ليس قبلها
ولا بعدها شيء . »

دخلت الماء عارياً تماماً كما ولدتني أمي . أحسست برجفة
أول ما لامست الماء البارد ، ثم تحولت الرجفة الى يقظه .
النهر ليس ممتلئاً كأيام الفيضان ولا صغير المجرى كأيام التجاربق
لقد اطفأت الشموع واغلقت باب الغرفة واغلقت باب الحوش
دون ان افعل شيئاً . حريق آخر لا يقدم ولا يؤخر . تركته
يتحدث وخرجت لم أدعه يكمل القصة . فكرت ان اذهب
وأقف على قبرها . فكرت ان ارمي المفتاح حيث لا يجده
احد . ثم عدلت . اعمال لا معنى لها ومع ذلك لا بد من
القيام بعمل ما . وقادتني قدماي الى الشاطئ وقد لاحت
تباشير الفجر في الشرق . سأنفس عن غيظي بالسباحة . كانت
الاشياء على الشاطئ نصف واضحة ، تبين وتختفي ، بين النور
والظلام . كان النهر يدوي بصوته القديم المألوف ، متحركاً
كأنه ساكن لا صوت غير دوي النهر وطفطقة مكينات الماء
غير بعيد . واخذت اسبح نحو الشاطئ الشمالي . وظللت أسبح
واسبح حتى استقرت حرركات جسمي مع قوى الماء الى تناسق

مريح . لم اعد افكر وانا اتحرك الى الامام على سطح الماء
وقع ضربات ذراعي في الماء . وحركة ساقى ، وصوت زفيرى
بالنفس ، ودوي النهر ، وصوت المكنة تطلق على الشاطيء
لا اصوات غير ذلك . ومضيت اسبح واسبح وقد استقر
عزمى على بلوغ الشاطيء الشمالى . هذا هو الهدف . كان
الشاطيء امامى يعلو ويهبط ، والاصوات تنقطع كلية ثم
تضج . وقليلًا قليلًا لم اعد اسمع سوى دوي النهر . ثم اصبحت
كأننى فى بهو واسع تتجاوب اصداؤه . والشاطيء يعلو ويهبط
ودوي النهر يغور ويطفو . كنت ارى امامى نصف دائرة .
ثم اصبحت بين العمى والبصر . كنت اعى ولا اعى . هل انا
نائم ام يقظان ؟ هل انا حي ام ميت ؟ ومع ذلك كنت ما
ازال مسكًا بخيط رفيع واهن : الاحساس بان الهدف امامى
لا تحنى ، واننى يجب ان اتحرك الى امام لا الى اسفل . لكن
الخيط وهن حتى كاد ينقطع ، ووصلت الى نقطة احسست
فيها ان قوى النهر فى القاع تشدنى اليها . سرى الخدر فى ساقى
وفى ذراعى ، اتسع البهو وتسارع تجاوب الاصداه . الآن .
وفجأة ، وبقوة لا ادري من اين جاءتنى ، رفعت قامتى فى
الماء . سمعت دوي النهر وطقطقة مكنة الماء . تلفت يمنة
ويسرة فاذا انا فى منتصف الطريق بين الشمال والجنوب . لن
استطيع المضي ولن استطيع العودة . انقلبت على ظهري وظللت
ساكنًا احرك ذراعى وساقى بصعوبة بالقدر الذى يبقينى طافياً

على السطح . كنت احس بقوى النهر الهدامة تشدني الى اسفل
وبالتيار يدفعني الى الشاطئ الجنوبي في زاوية منعنية . لن
استطيع ان احفظ توازني مدة طويلة . ان عاجلاً او آجلاً
ستشدني قوى النهر الى القاع . وفي حالة بين الحياة والموت
رأيت اسراباً من القطى متجهة شمالاً . هل نحن في موسم
الشتاء أو الصيف ؟ هل هي رحلة ام هجرة ؟ واحسست انني
استسلم لقوى النهر الهدامة . احسست بساقي تبحران بقية
جسمي الى اسفل . في لحظة لا ادري هل طالت ام قصرت
تحول دوي النهر الى ضوضاء مجلجلة ، وفي اللحظة عينها لمع
ضوء حاد كأنه لمع برق . ثم ساد السكون والظلام فترة لا
اعلم طولها ، بعدها لحت السماء تبعد وتقرب والشاطيء يعلو
ويهبط . واحسست فجأة برغبة جارفة الى سبجارة . لم تكن
بمجرد رغبة . كانت جوعاً . كانت ظمأً . وقد كانت تلك
لحظة اليقظة من الكابوس استقرت السماء واستقر الشاطئ
وسمعت طقطقة مكنة الماء ، واحسست ببرودة الماء في
جسمي . كان ذهني قد صفا حينئذ ، وتحددت علاقتي بالنهر
انني طاف فوق الماء ولكنني لست جزءاً منه فكرت انني
اذا مت في تلك اللحظة فانني اكون قد مت كما ولدت ، دون
ارادتي . طول حياتي لم اختر ولم اقرر . انني اقرر الآن انني
اختر الحياة . سأحيا لان ثمة اناس قليلين احب ان ابقى
معهم اطول وقت ممكن ولأن علي واجبات يجب ان اؤديها

لا يعني ان كان للحياة معنى او لم يكن لها معنى . واذا
كنت لا تستطيع ان اغفر فسأحاول ان انسى . سأحيا بالقوة
والمكر . وحركت قدمي وذراعي بصعوبة وعنف حتى
صارتم قامتي كلها فوق الماء . وبكل ما بقيت لي من طاقة
صرخت ، وكأنني ممثل هزلي يصبح في مسرح : « النجدة » .
النجدة » .

انتهت

مؤلفات للكاتب صدرت عن « دار العود »

- عرس الزين رواية
- دومة ود حامد مجموعة قصص
- بندرشاه رواية
- المريود رواية
- الطيب صالح عبقرى الرواية العربية دراسات